الرسالة ٢٨٦

تطلع المرأة الصليبية للسلطة

وصراع القوى في المرحلة المبكرة للحروب الصليبية

(٥٢٤ - ٥٥٦هـ/ ١١٣٠ - ١١٦١م)

في ضوء ما كتبه المؤرخ الصليبي وليم الصوري

د. جمال محمد حسن الزنكي
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة الكويت

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - الحولية التاسعة والعشرون - ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

المؤلف:

د. جمال محمد الزنكي :

- دكتوراه في التاريخ الإسلامي والوسيط من جامعة سانت آندروز بالمملكة المتحدة سنة ١٩٨٩م.
- مدرس التاريخ الوسيط والإسلامي بجامعة الكويت منذ سنة ١٩٨٩م.

الإنتاج العلمي:

- مؤيد الدين ياغي سيان صاحب أنطاكية والحملة الصليبية الأولى (٤٧٧ – ٤٩١هـ/ ١٠٨٥ – ١٠٩٨م)، **حوليات كلية الآداب** بجامعة الكويت، الحولية الثامنة عشرة، الرسالة ١٢٦ سنة ١٤١٧ – ١٤١٨هـ/١٩٩٧ – ١٩٩٨م، الصادرة من مجلس النشر العلمي جامعة الكويت.
- موضوعية المؤرخ وليم الصوري في ميزان النقد التاريخي، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية** الصادرة عن مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، المجلد ٨٥، سنة ٢٠٠٤م.

المحتوى

الملخص

هذه الدراسة تبحث في ظاهرة غريبة، وهي تسلط النساء الصليبيات على الكيان الصليبي في الشرق في المدة الزمنية ما بين سنتي (٥٢٤ و٥٥٦ هـ/ ١١٣٠ و١١٦١م)، ولم يكن هذا التسلط بمعزل عن صراع القوى سواء كانت مسلمة أم صليبية أم بيزنطية أم أرمنية. الغريب في أمر هذه الظاهرة هو أن ثلاث نسوة شقيقات من أم أرمنية تُدعى مورفيا بنت جبريل صاحب ملطية – وهن بنات بلدوين الثاني ملك بيت المقدس (٥١٢ – ٥٢٥هـ/١١١٨ – ١١٣١م) – سيتسلطن على الكيان الصليبي ما بين سنتي (٥٢٤ و٥٥٦هـ/ ١١٣٠ و١١٦١م)، فالأخت الكبرى تُدعى "ميلِزاند" ستتسلط على مملكة بيت المقدس بين سنتي (٥٢٥ و٥٤٦هـ/١١٣١ و١١٥١م)، بينما "أليس" ستتسلط على إمارة أنطاكية في مدد متقاطعة بين سنتي (٥٢٤ و٥٢٥هـ/ ١١٣٠ و١١٣١م)، وستتسلط ابنة أليس، وهي "كونستانس" لمدة أربع سنوات بعد مقتل زوجها ريمون دي بواتيه أمير أنطاكية سنة (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م)، والأخيرة "هوديرنا" ستتحكم بكونتية طرابلس بوصايتها على ابنها ريمون الثالث سنة (٥٤٧هـ/١١٥٢م). ويبدو أنها المرة الأولى التي تُدرس فيها هذه الظاهرة بهذه الشمولية وربطها بصراع القوى التي سبق ذكرها.وقد شهدت هذه المدة الزمنية تحولات كبيرة حيث بدأ نمو الوحدة الإسلامية لمواجهة العدوان الصليبي، وظهور قيادات مسلمة متميزة كزنكي (٥٢١ – ربيع آخر ٥٤١هـ/١١٢٦ – ١١٤٦م) وابنه نورالدين محمود (٥٤١ – ٥٦٩هـ/١١٤٦ – ١١٧٤م)، بينما بدأ تراجع وحدة وقوة الكيان الصليبي بتسلط نسائه وضعف رجاله، فرجحت لأول مرة كفة الصراع لصالح القوى المسلمة.

المقدمة

يدرس هذا البحث ظاهرة فريدة من نوعها شهدها عهد الحروب الصليبية في الشرق في مرحلتها المبكرة، حيث تحكم في الكيان الصليبي في الشرق الإسلامي نساء في المدة الزمنية ما بين سنتي (٥٢٤ و٥٥٦هـ/ ١١٣٠ و١١٦١م). وهذه الظاهرة الغريبة لم تحظ بعناية – بحسب ظني – باهتمام كبير من الباحثين سواء الغربيون أم المسلمون، وتبحث هذه الدراسة هذه الظاهرة في منظور متكامل، وتربطها بموضوع صراع القوى المختلفة سواء كانت مسلمة أم بيزنطية أم صليبية أم أرمنية في مناطق بلاد الشام والجزيرة الفراتية وأجزاء من آسيا الصغرى خاصة في جنوب شرقها في منطقة إقليم فليقية، فعندما تناقش هذه الدراسة تطلع الملكة مليزاند – مثلاً – "Melisende" للسلطة فهي تدرسها في ظل هذا المنظور، بمعنى أن موضوع تطلع الملكة مليزاند – بنت الملك بلدوين الثاني – للاستبداد في حكم مملكة بيت المقدس في المدة الزمنية بين سنتي (٥٢٥ و٥٤٦هـ/ ١١٣١ و١١٥١م) هو جزء من هذه الظاهرة، وليس منفصلاً عن تطلع أختها أليس "Alice" أميرة أنطاكية عندما حاولت الاستقلال عن أبيها بلدوين الثاني – ملك بيت المقدس – في سنة (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م) بعد مقتل زوجها بوهيموند الثاني، وكذلك ثورتها في سنة (٥٢٥هـ/ ١١٣١م) على فولك "Fulk" – دوق أَنْجو – وهو ملك بيت المقدس الجديد الذي خلف والدها، وهو زوج أختها مليزاند، كما ستستبد ابنة أليس، وهي كونستانس Constance، في حكم أنطاكية بعد مقتل زوجها ريمون دي بواتيه "Raymond de Poitiers" – أمير أنطاكية – لمدة أربع سنوات بدأت سنة (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م).

كما أن تطلع أختها الثالثة هوديرنا "Hodierna" إلى الاستبداد بحكم طرابلس بعد مقتل زوجها ريمون الثاني – كونت طرابلس – ووصايتها على

ابنها القاصر ريمون الثالث سنة (٥٤هـ/١١٥٢م) لم يكن بمعزل عن هذه الظاهرة الفريدة. فليس من المصادفات أن يتحكم ثلاث نسوة صليبيات شقيقات في الكيان الصليبي في مدة زمنية مهمة من مدد الصراع الصليبي الإسلامي. ويبدو أن أمهن الأرمنية مورفيا "Morphia" – ابنة جبريل الأرمني صاحب ملطية – قد أرضعت بناتها الثلاث الرغبة في التسلط على الكيان الصليبي، وربما بهدف إضعافه بل القضاء عليه. وربما كان هذا الرأي هو الذي أحرج كثيراً من المؤرخين الغربيين، وصرفهم عن الخوض في هذا الموضوع الشائك، ففضلوا الابتعاد عنه حتى لا يُظهروا الأرمن في صورة المتآمرين على الكيان الصليبي بواسطة هذا الزواج السياسي الذي ربط بلدوين البورجي "الثاني" "Baldwin II of le Bourg" بـ "مورفيا" الأرمنية. وقد استلفتني هذا الموضوع فعقدت العزم على البحث فيه، وربطه بصراعات القوى المختلفة من مسلمة وصليبية وبيزنطية وأرمنية، فالمرأة الصليبية لا يمكن أن تسنح لها هذه الفرص للتطلع للسلطة لو لم تكن هذه الصراعات قد هيأت لها الظروف المناسبة، ولذلك جعلت البحث يحمل عنواناً وهو "تطلع المرأة الصليبية للسلطة وصراع القوى في المرحلة المبكرة للحروب الصليبية". والجدير بالذكر أن أكثر مؤرخ معاصر أشار إلى دور المرأة الصليبية وتطلعها للسلطة هو المؤرخ اللاتيني وليم الصوري، وهو رئيس أساقفة كنيسة صور (١١٧٥ – ١١٨٤) في كتابه المعروف "بالأعمال المنجزة فيما وراء البحار". ولذلك ستتركز الدراسة على ما كتبه هذا المؤرخ، ومقارنة رواياته بروايات المؤرخين المسلمين واللاتين والبيزنطيين والسريان.

أرجو أن يكشف هذا البحث بعض الغموض عن هذه الظاهرة الغريبة.

تمهيد

من الضروري التمهيد لموضوع هذا البحث بتعرف أحوال الدولة الإسلامية التي كانت المسرح الذي شهد العدوان الصليبي أواخر القرن الحادي عشر، إذ استبد في حكم الخلافة العباسية منذ سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م) فئة من الأتراك عُرفوا بالسلاجقة، فقد أقام السلاجقة في بلاد ما وراء النهر دولة سنة (٤٢٩هـ/١٠٣٨م) على أنقاض الدولة الغزنوية، ثم توسعوا سريعاً حتى سيطروا على الخلافة العباسية، ودخل السلاجقة السُنة في صراع عنيف مع منافسيهم الفاطميين – الشيعة الإسماعيلية – الذين كانوا يسيطرون آنذاك على مصر وأغلب بلاد الشام خاصة الساحل الشامي. وقبيل قدوم العدوان الصليبي بلغت المنافسة بينهما قمتها، فقد تمكن السلاجقة من انتزاع أغلب بلاد الشام، وتبقى الساحل بيد الفاطميين فيما عدا طرابلس وضواحيها التي أقام بها بنو عمّار – الشيعة الاثنا عشرية – إمارة مستقلة عن الفاطميين، وقد انقسمت ممتلكات السلاجقة في بلاد الشام إلى مملكتي حلب ودمشق تحت حكم ابني تُتش بن ألب أرسلان، وهما الملك رضوان ملكاً على مدينة حلب وما حولها، وأخوه الملك دُقاق ملكاً على مدينة دمشق وما حولها. وقد اتبعت هاتان المملكتان سياسة متوازنة نحو أسيادهم سلاطين السلاجقة العظام كملك شاه وابنه بِرْكياروق، وكذلك تجاه الفاطميين المخالفين لهم مذهبياً وسياسياً، وكان التنافس بين مملكتي حلب ودمشق قد بلغ الذروة، بينما كانت جيوش الحملة الصليبية الأولى تزحف نحو الشرق الإسلامي.

وكان من الأهداف الرئيسية للدولة السلجوقية هو إضعاف الإمبراطورية البيزنطية والتوسع على حسابها، كما كان من أهدافها منع تحالف بيزنطي فاطمي محتمل ضدها، وتمكن السلاجقة من تحقيق نصر عسكري كبير على

الإمبراطورية البيزنطية سنة (٤٦٣هـ/١٠٧١م) في معركة ملاذكرد التي أكدت مدى الضعف الذي كانت تعانيه الإمبراطورية، والتي ظلت حوالي خمسة قرون مُدافعة ضد التوسع الإسلامي من جهة الشرق تجاه أوروبا الغربية، وبهذا تخوّف الغرب الأوروبي من سقوط الإمبراطورية البيزنطية بيد المسلمين السلاجقة حتى لا يَسهل سقوط أوروبا الغربية بيد المسلمين عبر منطقة شبه جزيرة البلقان، وقد تأكد ذلك التخوف عندما طلب الإمبراطور البيزنطي "ألكسيوس كومنين" من البابا إربان الثاني إرسال قوات لتعينه على وقف التوسع السلجوقي في آسيا الصغرى، فجاءت الاستجابة أكبر مما توقع الإمبراطور، وذلك في شكل حملة دينية عُرفت بالحملة الصليبية للتوسع في الشرق الإسلامي، وإقامة دول خاضعة للبابوية، بل إن الإمبراطور البيزنطي تخوّف من ضخامة هذه الحملة، ولذلك أصر على أن يقسم قادتها قسم يمين الولاء والطاعة له بحيث يكونون تحت سيطرته، وهو ما تحقق نظرياً.

وكان من نتائج نصر السلاجقة في ملاذكرد إخضاعهم لأغلب آسيا الصغرى حيث أقاموا هناك عدة دول بقي منها قبيل العدوان الصليبي دولتان هما: سلطنة سلاجقة الروم في قلب الأناضول الذين اتخذوا مدينة نيقيا عاصمةً لهم، وإمارة بني الدانشموند في شمال شرق الأناضول واتخذوا ملطية عاصمة لهم، وكانت كلتا الدولتين في منافسة شديدة ضد بعضهما البعض عندما كانت جيوش الحملة الصليبية الأولى تزحف نحو الشرق الإسلامي حيث سيكونون أول من سيصطدم بهذه الحملة الكبيرة، ولم يتوقف الصراع بين هاتين الدولتين طوال فترة موضوع بحثنا.

ومن نتائج انتصار ملاذكرد سقوط أرمينيا كلها بيد السلاجقة، فاضطر كثير من الأرمن إلى الهجرة إلى أجزاء خاضعة للبيزنطيين في الجزيرة الفراتية كما في الرُّها وتل باشر، وكذلك في إقليم إقليقية في جنوب شرق الأناضول، وأجزاء من شمال بلاد الشام كمدينة أنطاكية وضواحيها، وعندما

كانت جيوش الحملة الصليبية الأولى تزحف نحو الشرق كان الأرمن سياسياً خاضعين للمسلمين والبيزنطيين، فتارة نراهم خاضعين للمسلمين السلاجقة وتارة أخرى خاضعين للبيزنطيين، وعندما تمكن الصليبيّون سنة (٤٩١هـ/ ١٠٩٨م) من إقامة دولة لهم في الرُّها – الجزيرة الفراتية – كانت الرُّها يحكمها ثوروس الأرمني الخاضع سياسياً للبيزنطيين. فقد ظن الأرمن أن الصليبيين جاءوا منقذين لهم من استبداد البيزنطيين والمسلمين فقدموا لهم يد العون، فكافأهم الصليبيّون بنكران الجميل وإذلالهم والتوسع على حسابهم. وعندما يئس الأرمن من وقف التوسع الصليبي على حسابهم أرادوا إضعاف الكيان الصليبي بواسطة الزواج السياسي، حيث أرادوا من الزواج السياسي إضعاف هذا الكيان الصليبي الذي نكّل بهم، ومن أوضح صور هذا الزواج السياسي تزويج جبريل الأرمني – صاحب ملطية – ابنته مورفيا ببلدوين البورجي – كونت الرُّها – (٤٩٥هـ/١١٠٢م)، حيث سيتولى بلدوين حكم مملكة بيت المقدس سنة (٥١٢هـ/١١١٨م) ويحاول الاستبداد بحكم بقية الدول الصليبية في الرُّها وأنطاكية وطرابلس، وسيُرزق بلدوين من مورفيا ببنات فقط، حيث سيتمكّن من الاستبداد بالكيان الصليبي لمدة من الزمن، وهو موضوع هذا البحث.

أولاً – مشاركة المرأة الصليبية في الحملة الأولى

تجمع المصادر التاريخية اللاتينيّة على عظم مشاركة المرأة اللاتينيّة في المشروع الصليبي خاصة في الحملة الصليبية الأولى. وتفاوتت دوافع المشاركة في الحملة الأولى بين إعانة زوجها على مشاق الحملة، والخوف من غواية زوجها، خاصة بعد تطوع كثير من المومسات للترويح – كما يزعمن – عن المقاتلين الذين أخلصوا للمشروع الصليبي الذي صُبغ بالدين، وذلك رجاء رضاء ربهم كما كانوا يزعمون. وربما شاركت بعض النساء في الحملة بدافع حب الاستطلاع والمغامرة أو طلباً لغفران الذنوب. وصحبت بعض نساء القادة الصليبيين أزواجهن في الحملة الأولى، ومثال ذلك إلفيرا "Elvira" زوجة ريمون الرابع كونت تولوز. كما صحبت جوتيريا "Godvere" زوجها بلدوين البويوني "Baldwin of Boulogne" إلى أن ماتت في مرعش بينما كان زوجها في حملة عسكرية خاصة به ضد "طرسوس" عندما غادر بقواته دون إذن من القادة الصليبيين[١].

وحثت كثير من النساء اللّاتين أزواجهن على المشاركة في المشروع الصليبي، بل إن هناك نساء حرضن أزواجهن على المشاركة في المشروع الصليبي، ولم يلتحقن بالمشروع، فتلك أديلا ADELA – ابنة وليم الفاتح ملك إنجلترا وزوجة "ستيفن" كونت شارتر وبلوا – تحث زوجها على المشاركة بالمشروع الصليبي من جديد بعد أن فرّ من الحملة الأولى في سنة (٤٩١هـ/ ١٠٩٨م) وذلك قبل سقوط مدينة أنطاكية بأيدي الصليبيين بأيام، والذي امتد حصارها أكثر من سبعة أشهر، فيعود "ستيفن" ويشارك في حملة سنة (٤٩٤هـ/١١٠١م) خوفاً من تعيير زوجته فيُقتل في إحدى المعارك قرب الرملة في مايو (٤٩٥هـ/١١٠٢م) بينما كان يُقاتل مع قوات ملك بيت المقدس بلدوين الأول "البويوني". وهكذا مسح عار فراره وارتاح من تعيير زوجته[٢].

وتفاوتت مساهمة المرأة الصليبية في المشروع الصليبي ما بين توفير الطعام والماء للمقاتلين، إلى تضميد جراح المقاتلين، بل وصل الأمر بهن أن قاتلن قتالاً شرساً كما فعلن ذلك عند محاولتهن في شهر (شعبان ٤٩٣هـ/ يوليو ١٠٩٩م) الاستيلاء على بيت المقدس - الهدف الرئيس للمشروع الصليبي - إلى جانب إخوانهن من الرجال. ويبدو أن النساء الصليبيات تفجرت فيهن الحماسة الدينية في ذلك الموقف حتى إن المؤرخ وليم الصوري "William Archbishop of Tyre" يصفهن فيقول: "لم يمنع النساء أنوثتهن ولا ضعفهن الطبيعيان من الإقدام - بلا مبالاة - على حمل السلاح لخوض المعركة بجنان ثابت فوق طاقتهن"[٣].

ولا تذكر المصادر التاريخية المعاصرة أعداداً دقيقة للمشاركات في الحملة الصليبية الأولى، ويقدر المؤرخ اللاّتيني وليم الصوري عدد النساء اللاتي لقين حتفهن بسبب الطاعون بعد استيلاء الصليبيين على أنطاكية في (شعبان ٤٩١هـ/ الثالث من يوليو ١٠٩٨م) بخمسين ألف امرأة، ويلفت "وليم" انتباهنا إلى أن "ذلك الطاعون أكثر ما تفشى في النساء على وجه الخصوص، حتى هلك منهن فيه ما يقرب من خمسين ألف امرأة في أيام قلائل"[٤]. ويبدو أن ذلك التقدير لعدد النساء اللاتي متن بسبب ذلك الطاعون مبالغ فيه كثيراً، ويمكن أن نقدر عدد جميع النساء المشاركات في الحملة الأولى - بما فيهن اللاتي لقين حتفهن بسبب ذلك الطاعون - بخمسين ألفاً. وهو عدد معقول، وذلك إذا قدرنا أن عدد المشاركين في الحملة جميعاً ما بين المائة والستين ألفاً والثلاثمائة ألف. ونفترض أن الرجال الذين اصطحبوا نساءهم هم المقتدرون فقط على تحمل تكاليف رحلة طويلة وشاقة، وهم الفرسان الذين يقدر عددهم وليم الصوري بسبعين ألفاً[٥].إن مشاركة المرأة بنسبة حوالي الربع في الحملة الصليبية تعطي إشارة واضحة إلى عظم مشاركتها آنذاك في حملة عسكرية بعيدة ومحفوفة بمخاطر كثيرة.

وقد عانت المرأة الصليبية من المصاعب الكثيرة كما عانى المقاتلون أنفسهم. وإحدى أنواع المعاناة هي قلة الماء، فبعد أن حقق الصليبيون نصراً كبيراً على المسلمين في معركة ضوريليوم "Dorylaeum" في ٤٩٠هـ/الأول من يوليو ١٠٩٧م) زحفوا عبر بلاد "بيثينيا" إلى "بيسيديا" حيث نزلوا بواد جاف في صحراء تراقيا؛ وذلك رغبة منهم في اختصار الطريق، فقد تجنبوا الطريق الرئيسي فحرقتهم شمس يوليو في صحراء تراقيا القاحلة، ولم تستمر مدة عبورهم سوى ثلاثة أيام حتى مات منهم خمسمائة من شدة الحر، وأكثر من مات من النساء، حتى إن وليم الصوري يقول: "إن الحوامل من النساء طرحن ما في بطونهن من شدة الظمأ والحر المهلك، وكان ذلك حدثاً لم يسجل التاريخ له مثيلاً". ويضيف: "إن النساء – اللاتي كن يعانين غصص الكرب الشديد وشدة العطش – تركن أولادهن في المعسكر وهن يعانين سكرات الموت، فدفعت الرحمة الإنسانية غيرهن من النساء فاحتضن الأطفال الرضع الجوعى على صدورهن لإرضاعهن، وهن شبه عاريات غير آبهات أن يراهن الرجال على ذلك الوضع"[٦].

تلك الإشارات عن نماذج من مشاركة المرأة الصليبية في الحملة الأولى تؤكد تفاعل المرأة اللّاتينية مع المشروع الصليبي، وتؤكد مدى إخلاصها وتفانيها في خدمة ذلك المشروع الذي أطلقت عليه البابوية اسم "المشروع الرباني". فلم نر إشارات توضح استغلال المرأة اللاتينية لذلك المشروع لمصلحتها الخاصة في تلك المرحلة.

ثانياً – البدايات الأولى لصراع القوى الصليبية

إن تطلع المرأة الصليبية للسلطة لم يحدث طفرة واحدة، وإنما نما تدريجياً انطلاقاً من التنافس بين القوى المختلفة من صليبية وبيزنطية وأرمنية ومسلمة منذ وطئت أقدام الصليبيين بلاد الإسلام، أما ما يتصل بعلاقة الصليبيين بالبيزنطيين فإن الحملة الصيلبية الأولى كانت استجابة لدعوة الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين، الذي طلب مساعدة من الغرب الأوروبي لمواجهة المسلمين السلاجقة في آسيا الصغرى، فجاءت الاستجابة أعظم وأخطر مما توقع، كما أن ألكسيوس اشترط على القادة الصليبيين قسم يمين الولاء له وإعادة كل ما سيستولون عليه من المسلمين من أراضٍ كانت خاضعة من قبل للبيزنطيين، وهو ما عُرف باتفاقية القسطنطينية سنة ١٠٩٧م. فاستغلت المرأة الصليبية ذلك التنافس لفرض سلطتها على الكيان الصليبي آنذاك، ولن أخوض في تفاصيل تنافس القوى الصليبية مع بعضها البعض، ولكن سأشير له إشارات مختصرة وأربطه بموضوع البحث الرئيسي، وهو تطلع المرأة الصليبية للسلطة في المرحلة المبكرة للحروب الصليبية. وبشكل عام كانت جيوش الحملة الصليبية الأولى عبارة عن جيوش غير متجانسة، ولم يكن لها قيادة موحدة بل كانت هناك قيادة مشتركة ضعيفة لم تكن سلطتها مؤثرة وملزمة على بعض القادة الذين استغلوا تلك الحملة لتحقيق مشاريعهم الخاصة على حساب ذلك المشروع الديني الذي تبنته البابوية.

فذلك تانكريد "Tancred" بن وليم مارشيسوس – وهو ابن أخت بوهيموند ابن روبر جوسكارد – أمير تارنتو – سيقود قواته منفصلاً عن الجيش الرئيسي عند مرعش في (٤٩٠هـ/يوليو ١٠٩٧م) متجهاً نحو "طرسوس"، ثم يتبعه بلدوين البويوني – أخو الدوق جودفري "Godfrey of Lorraine" – الذي سيدخل مع تانكريد في نزاع مسوغ، حتى إنه أجبر تانكريد على مغادرة

"طرسوس" التي استسلمت له بتعاون أهلها الأرمن الذين طردوا الحامية التركية المسلمة، فاستلمها منهم تانكريد، ثم أخذ بلدوين يتحرش بتانكريد – عندما اتجه نحو "المصيصة" – وذلك قبل أيام من فرض الصليبيين حصارهم على أنطاكية في السابع عشر من أكتوبر عام (٤٩٠هـ/١٠٩٧م)، حيث سيقع أول صدام مسلح بين الصليبيين أنفسهم حيث انتصر بلدوين، ولكنه خسر دعم بقية القادة الصليبيين الذين رأوا فيه مثالاً للأنانية والغطرسة، وعموماً تم الصلح بين الطرفين المتنازعين، ولكن آثار ذلك الصراع النفسية ستبقى ما بقي تانكريد وبلدوين(٧).

ثم انصرف تانكريد آنذاك عن مشاريعه الانفصالية، والتحق بالجيش الرئيسي الذي توجه لفرض الحصار على أنطاكية في (٤٩٠هـ/أكتوبر ١٠٩٧م) والذي امتد أكثر من سبعة أشهر، بينما سيستمر بلدوين في مشاريعه الانفصالية، وسيتجه نحو الجزيرة الفراتية في "الرُّها" وما حولها ليقيم له كونتية صليبية بعد أن تآمر مع قادة الأرمن في "الرُّها" الذين فضلوا بلدوين على أميرهم ثوروس "Thoros" الأرمني، وهو تابع سياسياً للإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين. إن إقامة بلدوين البويوني لأول كونتية صليبية في "الرُّها" في (ربيع آخر ٤٩١هـ/ مارس ١٠٩٨م) لم يكن بقرار جماعي للقادة الصليبيين بل هو قرار فردي انفرد به بلدوين الذي لم يشارك في حصار أنطاكية – الطويل الأمد – كما لم يشارك في حصار بيت المقدس في (شعبان ٤٩٢هـ/يوليو ١٠٩٩م) – الهدف الرئيس للحملة الصليبية الأولى(٨).

كما أن استيلاء الصليبيين على مدينة أنطاكية – في (٤٩١هـ/يونيو ١٠٩٨م) – فتح باب المنافسة من جديد على حكمها، فتنازع بوهيموند "Bohemond" – أمير تارنتو النورماني – مع ريمون "Raymond" – كونت تولوز "Toulouse" – في صراع شديد على الاستئثار بأنطاكية. وخرج بوهيموند من ذلك الصراع منتصراً نظراً لجهوده الكبيرة في الاستيلاء على أنطاكية وكذلك لاستغلاله فرصة خلافه مع ريمون حول ملكية "معرة

النعمان" في (٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م)، فوجد فرصته في الانسحاب من الجيش الرئيسي المتجه نحو بيت المقدس للاستيلاء عليه، حيث انسحب بوهيموند إلى أنطاكية، وطرد قوات ريمون المتحصنة في عدد من أبراجها، وبذلك استأثر بوهيموند بحكم أنطاكية، وأقام إمارة نورمانية قُدِّرَ لها أن تبقى حوالي مائة وسبعين سنة. ولن يتوقف ذلك التنافس بين هذين القائدين عند ذلك الحد بل سيستمر لاحقاً بين النورمان أتباع بوهيموند والبروفانسيين أتباع ريمون كونت تولوز(٩).

وتمكن بوهيموند أن يوطد سلطته في مدينة أنطاكية وتوابعها حيث تحالف مع الجنوية ليساعدوه على توسيع إمارته على حساب القوى المسلمة خاصة مملكة حلب التي كان يحكمها آنذاك رضوان بن تُتُش، بينما قام ريمون آنذاك بالتحالف مع الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين خاصة بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، في (شعبان ٤٩٢هـ/ يوليو ١٠٩٩م)، فاختار القادة الصليبيون جودفري حاكماً لبيت المقدس ورفضوا ترشيحه لذلك المنصب. ويبدو أن ريمون قام بالاستيلاء على اللاذقية من المسلمين، وسلمها إلى البيزنطيين ليؤكد لهم صدق وفائه لاتفاقية القسطنطينية التي تعهد بها جميع القادة الصليبين بتسليم الإمبراطورية البيزنطية كل مدينة يستولون عليها من المسلمين، ليقوم الإمبراطور من جانبه بالتصرف بها كيف شاء سواء حكمها مباشرة كما حدث لنيقية أو منحها لأحد القادة كإقطاع في ظل التبعية الإقطاعية له(١٠).

وبينما نرى ريمون يسارع لكسب حليف ليعينه على إقامة كيان له حتى لو كان ذلك الحليف غير مرغوب فيه عند كل الصليبيين، وهو الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين "Alexius I Comnenus"، نرى إمارة أنطاكية الصليبية تتوسع في منطقة "قليقية" البيزنطية فتستولي على حصونها ومدنها، وتضمها لها، وبذلك دخلت أنطاكية في صراع مسلح مع الإمبراطورية البيزنطية التي لم

تعترف بشرعية حكم النورمان لأنطاكية التي هي من أهم المدن قداسة وأهمية استراتيجية للبيزنطيين[١١].

وعندما توفي جودفري – أول حاكم صليبي لبيت المقدس – في (٤٩٣هـ/ يوليو ١١٠٠م) وقع شقاق كبير بين الصليبيين، فبطريرك بيت المقدس دايمبرت "Daimbert" أصر على أن يتولى حكم بيت المقدس؛ لأنه أخذ عهداً من جودفري أن يحصل على بيت المقدس في حالة وفاته دون وريث. وبما أن جودفري لم يرزق بأولاد فلذلك أصر دايمبرت أن يتولى الحكم مباشرة، بينما تبنى العلمانيون فكرة توريث بيت المقدس لأحد أقارب جودفري كبلدوين البويوني "أخيه الأصغر" – أو إيوستاس "Eustace" – أخيه الأكبر – الذي كان في فرنسا آنذاك. وعندما رأى "دايمبرت" إصرار القادة العلمانيين وإرسالهم لبلدوين البويوني – كونت الرُّها – قام من جانبه بإرسال رسالة عاجلة إلى بوهيموند ليتولى حكم بيت المقدس بالإضافة إلى أنطاكية. ولكن بوهيموند وقع آنذاك في أسر القائد المسلم كمشتكين بن الدانشموند صاحب "سيواس" ولذلك لم تصل الرسالة له. وكان "تانكريد" – ابن أخت بوهيموند – آنذاك في إقطاعه في الجليل، فعندما علم أن بلدوين البويوني – خصمه اللدود – قادماً لتولي حكم بيت المقدس ترك إقطاعه، واتجه إلى أنطاكية ليتسلمها، ويخلف خاله بوهيموند في حكمها إلى أن يتم إطلاق سراحه. وبذلك فضل تانكريد الابتعاد عن بلدوين، ولم يطق حتى رؤيته، وهو يتوج ملكاً في بيت المقدس في (٤٩٣هـ/ديسمبر ١١٠٠م) وبيد دايمبرت نفسه الذي خضع للأمر الواقع أخيراً عندما أيقن بإخفاق فكرة توليته حكم بيت المقدس. وعندما نُصب بلدوين البويوني ملكاً لبيت المقدس أقطع ابن عمه بلدوين البورجي "Baldwin of Le Bourg" كونتية الرُّها بحيث يصير تابعاً له[١٢]، وبذلك فكرة إخضاع أحد الأمراء الصليبيين لأمير صليبي آخر، وسنرى أن قضية التبعية الإقطاعية تلك ستفتح الباب واسعاً لتدخل المرأة الصليبية من ذلك الباب لتغتنم الفرصة، وتستبد في

الحكم مستقبلاً. فلم يسبق أن كانت الرُّها أيام بلدوين البويوني خاضعة إقطاعياً لجودفري أول حاكم لبيت المقدس مع أن بلدوين البويوني هو الشقيق الأصغر لجودفري.

ثالثاً – زواج بلدوين البورجي بمورفيا الأرمنية

وترتبط مسألة أسر "بوهيموند" بدعوة جبريل الأرمني "Gabriel" صاحب "ملطية" له ليتسلمها منه، ويظل جبريل تابعاً إقطاعياً لبوهيموند، كما أن جبريل ضمّن الدعوة تزويج بوهيموند بابنته "مورفيا" Morphia وبذلك يكون الزواج السياسي وسيلة لذلك التحالف. وتعد "ملطية" من الناحية الجغرافية قريبة من الرُّها، ولذلك فإن فكرة تسليمها لبوهيموند صاحب أنطاكية ربما فيها إشارة إلى حرص جبريل أن يُوقع العداوة بين بوهيموند وبلدوين البويوني الذي كان آنذاك كونتاً على الرُّها. وربما ترجع لكون بوهيموند أشد قوة وعداوة للبيزنطيين الذين يرونه خان اتفاقية القسطنطينية لعدم تسليمه أنطاكية لهم، وهي مدينة ذات أهمية كبيرة لهم.

وكان "جبريل" ذلك أحد أتباع "فيلاريت" الذي كان يحكم قبل قدوم الصليبيين للشرق في منطقة كبيرة ومن أهم مدنها الرُّها وملطية ومرعش. وكان فيلاريت ينتهج سياسة تحاول كسب القوتين المتناحرتين في المنطقة، وهما السلاجقة المسلمون والبيزنطيون؛ ليحقق استقلال قومه الأرمن في الجزيرة الفراتية وقليقية ومناطق تمتد فيما وراء الفرات من خرتبرت حتى المصيصة في إقليم قليقية. فتارة تراه خاضعاً للبيزنطيين ويتبع مذهبهم الديني "الأرثوذكس" وتارة تراه خاضعاً للمسلمين، بل يعلن إسلامه على يد السلطان السلجوقي ملكشاه[١٣].

ويهمنا في ذلك الموضوع أن جبريل – صاحب ملطية – تبنى سياسة

فيلاريت عندما جاء الصليبيون، فأراد أن يستغل الصليبين لضرب خصومه من المسلمين والبيزنطيين على السواء على الرغم من أنه يعتنق المذهب الأرثوذوكسي البيزنطي المخالف لقومه الأرمن اليعاقبة المنوفستيين الذين يقولون بالطبيعة الواحدة للمسيح عليه السلام، وعرض جبريل على بلدوين البويوني استلام ملطية ولكنه لم يجبه(١٤).

وعندما وقع بوهيموند في أسر كمشتكين بني دانشمند قام جبريل الأرمني من جانبه بتقديم العرض نفسه لبلدوين البورجي خليفة بلدوين البويوني – في حكم الرُّها، فقبل بلدوين العرض وتزوج من ابنة جبريل المدعوة "مورفيا" وصار جبريل تابعاً لكونت الرُّها الجديد، وسيرزق بلدوين البورجي من مورفيا بأربع بنات، وهن مليزاند "Melisende" و أليس خ Alice" و هوديرنا خ Hodierna" و جوفيتا خ Joveta" بحسب ترتيب أعمارهن(١٥). وهؤلاء النساء – فيما عدا "جوفيتا" – سيضرب بهن المثل في شغف النساء الصليبيات بالسلطة السياسية، وهو موضوعنا الذي سنبسط فيه الحديث حيث سيشاركن بفاعلية لمدة تزيد عن ثلاثين سنة في حكم الكيان الصليبي منذ حوالي سنة (٥٢٤ حتى ٥٥٦هـ/ ١١٣٠ حتى سنة ١١٦١م). وليس هناك إشارة تفيد أن جبريل قد قدم عرضاً لتانكريد – خليفة بوهيموند في حكم أنطاكية عندما كان في الأسر – لتولي ملطية وتقديم مورفيا زوجة له فقد كان تانكريد كذلك عزباً. وعموماً فإن تلك القضية ربما زرعت في قلب بوهيموند شكاً في كون بلدوين البويوني ربما هو الذي أخبر كمشتكين بن الدانشمند بتحركه لتسلم ملطية في أغسطس (٤٩٤هـ/ ١١٠٠م)مما أدى إلى وقوعه في الأسر، ولذلك سوف نرى بوهيموند – بعد أربع سنوات – ينتقم من بلدوين البويوني بواسطة ابن عمه بلدوين البورجي الذي سيتولى الرُّها ويستلم ملطية من جبريل.

رابعاً – حملة (٤٩٤هـ/١١٠١م) وصراع القوى

وقدمت سنة (٤٩٤هـ/١١٠١م) حملة صليبية كبيرة بناء على دعوة البابا الجديد بسكال الثاني "Paschall II". ولا يهمنا تفاصيل الحملة، ولكن يهمنا ما يتصل بموضوعنا، وهو صراع القوى الصليبية من أجل السلطة، فقد تزعم "ريمون" – كونت تولوز وصنجيل "Saint - Gilles" – الجزء الأكبر من الحملة الذي عُرف بالحملة اللّمباردية، ولكنها ضمت بالإضافة إلى اللّمبارديين فرنسيين وألمان، ويبدو أن تحالف "ريمون" مع الإمبراطور البيزنطي "ألكسيوس كومنين" وحرصه على الاستفادة من الحملة لإقامة كيان خاص به هو أهم دوافع قيادته للحملة. والغريب أن اللّمبارديين – الذين كان يقودهم ريمون – رفضوا أن يزحفوا إلى بلاد الشام لقتال المسلمين بل أصروا أن يتجهوا إلى "نكسار" – في شمال شرق الأناضول – لإطلاق سراح بطلهم بوهيموند المأسور عند ابن الدانشموند – فقد كانوا يرونه الوحيد المؤهل لقيادتهم إلى النصر. وواضح أن ريمون كان يتمنى أن يبقى غريمه "بوهيموند" في الأسر، ولكنه اضطر للخضوع إلى رغبتهم، فاتجه نحو "نكسار" حيث تلقى هزيمة منكرة عند مرسيفان "Mersivan" وتشتّت القوات اللّمباردية، ثم ستتلقى حملتان صليبيتان أخريان هزيمتين كذلك على يد كمشتكين ابن الدانشموند الذي تحالف مع "قلج أرسلان" – صاحب "قونية" – ورضوان – ملك حلب – الذي كافأ ابن الدانشموند على تعاونه معه في وقف تهديد بوهيموند لحلب وذلك بأسره، كما تحالف معه "قراجه" أمير حران[١٦].

واتهم الصليبيون ريمون – كونت تولوز – بالتخاذل حيث زعموا أنه فرّ من ساحة المعركة قبل حسم المعركة، مما أدى إلى هزيمة القوات اللّمباردية في مرسيفان. وعموماً لم يكن ريمون ليقدم حياته فداء لبوهيموند الذي طرد قواته من أنطاكية، بينما كان هو يقود القوات الصليبية المتجهة إلى بيت

المقدس الهدف الرئيسي للحملة الصليبية الأولى. وهكذا فإن صراع القوى هو السبب الرئيسي في إخفاق حملة سنة (٤٩٤هـ/١١٠١م). كما أن محاولة إطلاق سراح بوهيموند في نكسار وجهت الحملة إلى أرض لم يألفها الصليبيون من قبل، ولذلك تلقوا ثلاث هزائم متفرقة في وقت قصير جداً من خصم واحد، وهو كمشتكين بن الدانشموند الذي كان يحجز عنده بوهيموند(١٧).

خامساً – بدايات دخول المرأة الصليبية طرفاً في صراع القوى

تلقى الملك بلدوين البويوني في (شعبان٤٩٦هـ/مايو ١١٠٢م) هزيمة منكرة قرب الرملة على أيدي الفاطميين، ووصلت إشاعة تفيد بقتل بلدوين لزوجته الأرمنية المدعوة أردا بنت طوروس في يافا، فقامت بطلب نجدة من تانكريد وهو خصم بلدوين. ولكن بلدوين وصل سالماً إلى يافا، وقاد قواته ليثأر من هزيمته تلك(١٨). ولم تذكر المصادر عتب بلدوين على زوجته.

نال بوهيموند في سنة (٤٩٦هـ/١١٠٣م) حريته، وأُطلق سراحه بعد دفع فدية شارك في جمعها بلدوين البورجي وقريبه جوسلين دي كورتناي "Joscelin de Courtenay" بينما لم يكلف تانكريد نفسه ذلك، والراجح أنه ربما تمنى بقاء خاله في الأسر حتى ينفرد هو في حكم أنطاكية(١٩). وعموماً تحالف بوهيموند وتانكريد مع بلدوين البورجي، وقرروا الاستيلاء على حصن "حران" سنة (٤٩٧هـ/ ١١٠٤م). وعندما اشتد الحصار على حران قرر المدافعون عنها تسليمها للصليبيين الذين اختلفوا لمن تصير المدينة، ولذلك لم يتم تسليمها حيث قدمت آنذاك نجدة إسلامية كبيرة يقودها سقمان بن أرتق – صاحب ماردين وحصن كيفا – وجكرمش أتابك الموصل، والتقت القوتان، وانهزمت قوات بوهيموند وتانكريد قبل حسم المعركة، وسقطت قوات الرُّها صريعة أو مأسورة حتى إن بلدوين البورجي وقريبه جوسلين كانا ضمن الأسرى، وبتلك

الطريقة ثأر بوهيموند من بلدوين البويوني الذي اتهمه بالتآمر ضده، وأنه السبب الأساسي لأسره قبل أربع سنوات. وقام جكرمش بخطف بلدوين البورجي وجوسلين من قوات سقمان حتى يستأثر بالفدية الكبيرة المتوقعة لإطلاق سراحهما. وعموماً قام بوهيموند وتانكريد بالزحف نحو الرُّها وتسلماها من المدافعين عنها، وتعهد بوهيموند بإعادة الرُّها إلى بلدوين البورجي حال إطلاق سراحه، ثم عاد بوهيموند إلى أنطاكية، وبقي تانكريد في الرُّها حيث دافع عنها من محاولة "جكرمش" الاستيلاء عليها، وقد استعان تانكريد بقوات خاله بوهيموند الذي عاد من جديد للرها. وبعد أشهر قليلة سيغادر بوهيموند إلى إيطاليا وفرنسا ليتبنى – تلك المرة – حملة صليبية ضد الدولة البيزنطية، وترك بوهيموند تانكريد لحكم أنطاكية الذي قام من جانبه بتوكيل ريتشارد دي برنسيبات "Richard de Principate" في حكم الرُّها، وقد أساء ريتشارد إلى أهالي الرُّها من الأرمن، ولم يمنع الصليبيين من كف أذيتهم لهم(٢٠).

وعقد بوهيموند تحالفاً مع فيليب الأول ملك فرنسا حتى يساعده في حملته الصليبية تلك ضد الدولة البيزنطية، وتزوج بوهيموند من كونستانس "Constance" ابنة فيليب، كما زوج فيليب ابنته الثانية – غير الشرعية – المدعوة سيسيليا "Cecilia" لتانكريد، وبذلك تشكل تحالف وزواج سياسي صار ملك فرنسا طرفاً فيه. ودخل بوهيموند في صراع عنيف ضد الإمبراطور البيزنطي في البلقان، وتلقى هزيمة كبيرة سنة ١١٠٧م في درازو "Duruzzo"، ووقع اتفاقية ديفول "Devol" استسلم فيها للإمبراطور، وتعهد بإعادة أنطاكية للبيزنطيين، إلا أن تانكريد رفض تسليمها لهم(٢١).

وعاد بوهيموند إلى أملاكه في جنوب إيطاليا على نية العودة إلى أنطاكية إلا أنه توفي سنة (٥٠٢هـ/١١٠٩م) وخلف ابناً يُدعى "بوهيموند" الذي لم يتجاوز السنتين من عمره. ويبدو أن بوهيموند قد أوصى تانكريد بأن يكون وصياً على ابنه حتى يبلغ فيتولى أنطاكية. وقد بقي "بوهيموند" الثاني في حضانة أمه في

إيطاليا، وتحكم تانكريد في أنطاكية، ولم يطلب من أم بوهيموند "كونتسانس" أن تحضر لأنطاكية مع ابنها بوهيموند الثاني[٢٢].

ومات ريمون – كونت تولوز – في سنة (٤٩٩هـ/١١٠٥م) وهو يحاول الاستيلاء على طرابلس، وخلفه ابن أخته وليم جوردان "William - Jordan" بينما ابنه الأكبر برتراند "Bertrand" – كونت تولوز – كان في فرنسا. وفي عام (٥٠٢ هـ / ١١٠٩م) قاد برتراند بن ريمون قواتاً مدعومة بأسطول جنوي، ودخل في صدام مسلح لانتزاع كونتية طرابلس من "وليم". وقد وقف بلدوين البويوني – ملك بيت المقدس – إلى جانب برتراند، بينما وقف تانكريد إلى جانب وليم جوردان. وانتهى النزاع بإبرام صفقة استلم فيها برتراند "جبيل" و"تلة الحجاج" ووُعد بتسلم مدينة "طرابلس" في حالة سقوطها، بينما استلم وليم "عرقة" و"أنطرسوس" وملحقاتها. وقدم بلدوين المساعدة لبرتراند حيث تمكنا من الاستيلاء على مدينة "طرابلس" في السنة نفسها، فصار برتراند خاضعاً فعلياً لبلدوين البويوني، بل إن برتراند وبلدوين دبرا مؤامرة – فيما يبدو – قتل "وليم جوردان"، وهكذا صارت كونتية طرابلس جميعها خاضعة لبرتراند الذي كان هو نفسه تابعاً إقطاعياً لبلدوين الأول وتخلصت من تبعيتها لنورمان أنطاكية[٢٣].

وعندما تم إطلاق سراح بلدوين البورجي وجوسلين في سنة (٥٠٢هـ/ ١١٠٩م) ذهبا لاستلام الرُّها التي رفض تانكريد تسليمها لهما إلا إذا أقسما له يمين الولاء، وطبعاً رفضا ذلك الشرط الذي يدخلهما ضمن تبعية رجل قد غدر بهما من قبل، وكان السبب في وقوعهما في أسر قوات سقمان وجكرمش. فقام بلدوين بالتحالف مع "جاولي" حاكم الموصل الجديد، بينما تحالف "تانكريد" مع عدوه المسلم الملك "رضوان" صاحب حلب، ووقع قتال شديد بين الأطراف المتحالفة، وانتهى بانتصار كبير لقوات تانكريد التي أمدها رضوان بستمائة فارس كما يذكر ابن الأثير، وانتهى الصراع بعقد

صلح عادت الرُّها بموجبه إلى بلدوين البورجي سنة (٥٠٢هـ/١١٠٩م). وهكذا عادت الرُّها لصاحبها بعد نزاع شديد وقلوب ملئت حقداً على بعضها. وأُجبر تانكريد أن يُقسم يمين الولاء لأول مرة لخصمه القديم الملك بلدوين البويوني ملك بيت المقدس[٢٤]. ولذا لا نستغرب مستقبلاً أن نرى بلدوين البورجي – عندما سيتولى مملكة بيت المقدس سنة(٥١٢هـ/١١١٨م) بعد وفاة بلدوين البويوني – سيحرص على إخضاع أنطاكية النورمانية لسلطته المباشرة انتقاماً لعجرفة تانكريد الذي أراد آنذاك إذلاله وإخضاعه.

ويورد وليم الصوري حادثة غريبة تتصل بعلاقة بلدوين البورجي بوالد زوجته "جبريل" الأرمني صاحب ملطية الذي سبق الحديث عنه. وتوضح تلك الحادثة مدى استغلال وابتزاز بلدوين لعمه "جبريل"، حيث زار عمه في ملطية آنذاك، وتظاهر أنه تعهد لجنوده أن يدفع لهم أجورهم ولكنه لم يستطع دفعها، وزعم أنه تعهد لجنده في حالة عدم دفع أجورهم أن يقوموا بحلق لحيته، وهو تصرف فيه إهانة كبيرة عند الأرمن والشرقيين بشكل عام، وتظاهر جبريل – الذي يصفه وليم بالساذج – بتصديق ذلك، وقام بدفع أجور جنود بلدوين وهي ثلاثون ألف قطعة ذهبية ميخائيلية "عملة بيزنطية". ويبدو أن جبريل وابنته "مورفيا" – زوجة بلدوين البورجي – سيثأران للأرمن بطريقتهما الخاصة بواسطة بناتهما موضوع بحثنا هذا[٢٥].

كان ذلك النزاع بين بلدوين البورجي وتانكريد صاحب أنطاكية فرصة في تخفيف تهديد أنطاكية لحلب التي كانت في خطر كبير، فكانت فرصة التحالف تلك إنقاذاً لحلب واستمرارها مستقلة. فيذكر ابن العديم أنه "لم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية – أي الجنوبية – إلا حماة، ومن الغربية إلا الأثارب، والشرقية والشمالية في يده، وهي غير آمنة "وذلك عندما وصف حال مملكة حلب قبل ذلك التحالف بحوالي سنتين فقط"[٢٦].

وستحتفظ حلب سنة (٥٠٦هـ/١١١٣م) باستقلالها قبيل تسلم إيلغازي بن أرتق – صاحب ماردين – لها وكذلك سنة (٥١٣هـ/١١١٩م) – قبيل تسلمها من قبل آق سنقر البرسقي صاحب الموصل، حيث ستتعرض لتهديدات صليبية خطيرة، ولكنها حافظت على استقلالها حيث سيتسلمها زنكي – صاحب الموصل – سنة (٥٢٢هـ/١١٢٨م)، وسيتبنى زنكي مشروعاً كبيراً لإقامة جبهة إسلامية موحدة ستغير فيما بعد ميزان القوى لصالح القوى المسلمة، وسيكمل نورالدين محمود بن زنكي مشروع والده بتوحيد بلاد الشام، وسيضم دمشق في صفر ٥٤٩هـ/١١٥٤م)، ثم سيتبعها بضم مصر لتلك الجبهة سنة(٥٧٠هـ/١١٧٤م) حيث سيتأكد رجحان كفة ميزان القوى بانتصار "حطين" سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) وتحرير بيت المقدس ومعظم البلاد الإسلامية.

وعموماً نعود لموضوعنا فقد تعرضت الرُّها في سنة (٥٠٤هـ/١١١٠م) لتهديد خطير من قبل الحملة السلطانية السلجوقية بقيادة مودود والي الموصل، فأنجدها كل من ملك بيت المقدس بلدوين البويوني وتانكريد – أمير أنطاكية – وكذلك كونت طرابلس "برتراند" بقواتهم. وهكذا كان ذلك التهديد فرصة لتصفية الخلافات بين الصليبيين التي استشرت آنذاك خاصة بسبب خلافهم حول نزاع وليم جوردان وبرتراند بن ريمون بخصوص اقتسام كونتية طرابلس في السنة الماضية والذي سبق الحديث عنه[٢٧].

مرض تانكريد في سنة (٥٠٦هـ/١١١٢م) وأوصى زوجته "سيسيليا" – ابنة فيليب الأول ملك فرنسا – بالزواج من حليفه كونت طرابلس الجديد بونز بن برتراند الذي خلف آنذاك والده في حكم كونتيه طرابلس، ووفقاً لرواية ابن القلانسي فإن بونز كان طفلاً عندما صار كونتاً لطرابلس، وصار تحت وصاية تانكريد وأصحاب أبيه، ويبدو أن تانكريد أراد أن يكون ذلك الزواج زيادة في التواصل والتحالف بين نورمان أنطاكية مع بروفانسيي طرابلس الذين قدموا من جنوب فرنسا على حساب حكام بيت المقدس القادمين من

شمال فرنسا. وعندما مات تانكريد في العام نفسه نفذت أرملته وصيته وتزوجت بكونت بونز بن برتراند الذي خلف والده في العام نفسه بعد وفاته. فقد حكم بونز طرابلس حتى قُتل على يد التركمان سنة (٥٣١هـ/١١٣٧م) عندما هاجموا طرابلس[٢٨]. كما أوصى تانكريد أن يخلفه روجر بن ريتشارد – ابن أخته – في حكم أنطاكية على أن يكون وصياً على بوهيموند الثاني الذي بلغ آنذاك خمس سنوات، وهو مازال عند عمه وليم حاكم أبوليا بجنوب إيطاليا. وهكذا يبدو أن بوهيموند الثاني حُكم عليه أن يحكم أنطاكية تحت وصاية آخرين وكأنه يحكمها عن بعد، وسيبقى بوهيموند تحت وصاية روجر حتى مقتل الأخيرفي (ربيع الأول ٥١٣هـ/يونيو ١١١٩م) في معركة البلاط – التي عُرفت عند المؤرخين بـ"ساحة الدم" – ضد إيلغازي صاحب حلب وماردين، وقد وقعت أحداث تلك المعركة في شمال حصن الأثارب[٢٩].

وأقدم بلدوين الأول "البويوني" – في (٥٠٦هـ/١١١٣م) – على مغامرة غريبة حيث تزوج من أديلاد "Adelaide" – كونتيسة صقلية ووالدة روجر بن روجر حاكم صقلية – على الرغم من كونه متزوجاً من امرأة أرمنية تدعى أردا "Arda" ابنة تاثول "Tathoul" الأرمني من نسل روبين، وهو مؤسس الدولة البقراطية الأرمنية في شمال شرق مدينة سيس سنة (٣٧٤هـ/١٠٨٠م)، وزعم بلدوين "لأديلاد" أنه طلق زوجته الأرمنية، والتي اقترن بها بعد استقلاله في حكم كونتية الرُّها سنة (٤٩١هـ/١١٩٨م) بعد وفاة زوجته الفرنسية في مرعش الذي سبق ذكره. وكان هدفه من الزواج من تلك المرأة الأرمنية هو الحصول على المال، فقد كان في تلك المرة يسعى إلى الاستئثار بأموال الكونتيسة، والتي وعدها إن لم يرزق بمولود منها فإن مملكة بيت المقدس ستؤول إلى ابنها روجر. وبعد ثلاث سنوات اعترف بلدوين لها بأنه لم يُطلق زوجته الأرمنية، ففارقها بعد أن استحوذ على مالها. وهكذا أخفقت محاولة الكونتيسة في أن يكون لها دور أساسي في الكيان الصليبي، وهي أول محاولة

ربما كانت فيها المرأة تشارك في تلك التجربة دون أخذ الحيطة، وخرجت "أديلاد" من تلك التجربة خاسرة خسارة كبيرة[٣٠].

وتعرضت سنة (٥٠٦هـ/١١١٣م) قوات بلدوين البويوني – ملك بيت المقدس – لهزيمة شديدة في الإقحوانة – على بعد ثلاثة أميال من طبرية – على يد قوات مسلمة يقودها مودود – أتابك الموصل – وطُغْتِكين أمير دمشق وهي قوات تابعة للسلطان محمد السلجوقي، وحوصرت قواته في منطقة جبلية إلى أن قدمت قوات أنطاكية – يقودها روجر – وقوات طرابلس – يقودها بونز ابن برتراند – وأسهمت في فك الحصار، ولم ترد إشارة لقدوم قوات الرُّها لنجدة قوات بيت المقدس، والغريب أن بلدوين البويوني أسرع قبل سنتين لإنقاذ الرُّها من قوات مودود التي سبق الحديث عنها، ولكن بلدوين البورجي لم يرد جميل قريبه وسيده بلدوين البويوني ملك بيت المقدس[٣١].

سادساً – بلدوين الثاني وسياسته

في فرض حكم مركزي وتنامي القوى المسلمة

وتوفي بلدوين البويوني – ملك بيت المقدس – سنة (٥١٢هـ/١١١٨م)، وخلفه قريبه بلدوين البورجي كونت الرُّها وعُرف ببلدوين الثاني، وتم عقد تحالف بين بلدوين البورجي مع جوسلين – صاحب طبرية – الذي سبق أن فر سنة (٥٠٦هـ/١١١٣م) من بلدوين البورجي ولجأ إلى الملك بلدوين البويوني في مملكة بيت المقدس حيث أقطعه بلدوين البويوني طبرية والجليل اللتين كانتا من قبل إقطاعا لتانكريد أيام حكم جودفري لبيت المقدس، والجدير بالذكر أن جوسلين ذلك هو نفسه جوسلين دي كورتناي الذي سبق ذكره، والذي كان من قبل شريكاً مع بلدوين البورجي في حكم كونتية الرُّها، وهو نفسه الذي أُسر مع بلدوين البورجي سنة (٤٩٧هـ/١١٠٤م) بأيدي المسلمين كما أسلفت من قبل، ودعم الآن جوسلين فكرة تتويج بلدوين

البورجي ملكاً لبيت المقدس، فكافأه بلدوين البورجي بكونتية الرُّها على أن يصير تابعاً إقطاعياً له، وتمت الصفقة بتلك الصورة بحيث صارت الرُّها تابعة إقطاعياً لمملكة بيت المقدس تحت زعامة بلدوين الثاني الذي سيتميز عهده الجديد بالجدية في بسط سلطته على كل الكيانات الصليبية والتي بدأها بالرُّها ثم أنطاكية ثم طرابلس(٣٢).

وقد قام بلدوين البورجي بخطوات نحو بسط سلطته على الأمراء الصليبيين حتى قبل تتويجه ملكاً على بيت المقدس، ففي سنة (٥٠٦هـ/١١١٣م) زوج أخته بأمير أنطاكية روجر بن ريتشارد، وواضح أن بلدوين كان يرى في ذلك الزواج فرصة لبسط سلطته على أنطاكية النورمانية والتي كانت – قبل أربع سنوات – يبتزه صاحبها تانكريد بإجباره على قسم يمين الولاء له بعد إطلاق سراحه سنة (٥٠٢هـ/١١٠٩م) من أسر المسلمين مقابل إعادة الرُّها له عندما أُسر سنة (٤٩٧هـ/١١٠٤م) أثناء معركة "حران" التي سبق الحديث عنها. وهكذا بدأ بلدوين البورجي خطوة نحو بسط سلطته على أنطاكية حتى قبل توليه مملكة بيت المقدس والتي سيحكمها منذ (٥١٢هـ/١١١٨م). وسيسقط "روجر" صريعاً في سنة (٥١٣هـ/١١١٩م) في معركة "البلاط" الشهيرة في مواجهة قوات إيلغازي صاحب حلب وماردين. واستبد بلدوين البورجي في حكم أنطاكية بعد مقتل روجر سنة (٥١٣هـ/١١١٩م) على أن يكون وصياً لبوهيموند الثاني الذي كان يبلغ آنذاك حوالي اثنتي عشرة سنة ولا يزال مقيماً في إيطاليا تحت وصاية عمه وليم حاكم أبوليا "Apulia" في جنوب إيطاليا(٣٣). وسيثأر بلدوين الثاني لنصر "البلاط" الذي حققه آيل غازي، حيث سينتصر عليه في أغسطس من العام نفسه في معركة "زردنا" المعروفة بـ"تل دانيث".

وهكذا بقيت أنطاكية تدار مباشرة من الملك بلدوين البورجي لمدة سبع سنوات – إلى سنة (٥٢٠هـ/١١٢٦م) – حيث سيقوم آنذاك بلدوين البورجي

بعقد اتفاق مع وليم – حاكم أبوليا وعم بوهيموند الثاني – يُسمح لبوهيموند الثاني بموجبه الذهاب لأنطاكية لحكمها كوريث لوالده بوهيموند الأول. وقد تضمن الاتفاق تزويج بوهيموند الثاني بابنة بلدوين البورجي المدعوة "أليس" وهي الابنة الثانية له من زوجته الأرمنية "مورفيا" ابنة جبريل حاكم ملطية الذي سبق الحديث عن ظروف زواجه بها سنة (٤٩٥هـ/ ١١٠٢م). وهكذا أحكم بلدوين البورجي – ملك بيت المقدس – قبضته على إمارة أنطاكية وكونتية الرُّها، فالرُّها صارت خاضعة له بواسطة ابن خالته جوسلين الذي ألف الخضوع لبلدوين البورجي منذ كان بلدوين كونتاً للرُها حيث أذله سنة (٥٠٦هـ/١١١٣م)، ونزع منه كل الإقطاعات التي منحها له سنة (٤٩٥هـ/١١٠٢م) عندما كان مشاركاً له في حكم الرُّها، فقد سبق أن منحه بلدوين البورجي تل باشر وقورس ودلوك وعين طاب والراوندان وهي مناطق غربي الفرات[٣٤].

كما يبدو أن بونز بن برتراند بن ريمون – كونت طرابلس – نفسه صار تابعاً وخاضعاً لبلدوين البورجي "الثاني". وبذلك أحكم بلدوين الثاني قبضته على الكيان الصليبي، وقد أورد ابن العديم رواية يقول فيها : إن صاحب "زَرْدَنا" الذي استعصى على إيلغازي – صاحب حلب وماردين – قد توجه في سنة (٥١٦هـ/ ١١٢٢م) نحو طرابلس لطلب النجدة من بلدوين البورجي الذي كان آنذاك محاصراً لطرابلس حيث يقول ما نصه "في حكومة بينه وبين صاحبها – أي بونز بن برتراند" وربما يقصد أن بلدوين كان في خلاف مع بونز، ولذلك يذكر ابن العديم أن بلدوين تصالح مع صاحب طرابلس وشرط عليه الوصول إليه، ووصل بونز إلى أنطاكية حيث يقيم بلدوين، والطريف أن ابن العديم ينعت بلدوين بأنه صاحب أنطاكية وليس ملك بيت المقدس"[٣٥].

وقام بَلَك بن بَهْرام بن أُرْتُق – الذي كان يسيطر آنذاك على قلاع بالقرب من ملطية – في سنة (٥١٧هـ/١١٢٣م) بأسر جوسلين كونت الرُّها، قبل أن يأسر

في العام التالي بلدوين الثاني – ملك بيت المقدس – عندما التقى به قرب قلعة كَرْكَرْ، وبذلك خلت بيت المقدس والرُّها من حاكميهما. وقام "بلك" بسجنهما في سجن واحد وهو في "خرتبرت" على بعد مائة وعشرة أميال شمال مدينة الرُّها، ثم استولى بلك بن بهرام على حلب من ابن عمه سليمان بن عبدالجبار ابن أُرْتُق، والذي ورثها من عمه إيلغازي الذي توفي سنة (٥١٦هـ/١١٢٢م)(٣٦).

ولا يهمنا تفاصيل الأحداث ولكن يهمنا أن أسر بلدوين الثاني ربما أعطى فرصة لكونت طرابلس أن يلتقط أنفاسه ويتمتع ولو لسنة واحدة وعدة أشهر في حكم كونتيته دون إقرار بوصاية بلدوين الثاني عليه. والطريف أن الصليبيين حققوا – عندما كان بلدوين في الأسر – نصراً كبيراً حيث تمكنوا من الاستيلاء على مدينة "صور" الحصينة والتي امتنعت عليهم أكثر من ثلاثين عاماً، وتم ذلك عندما كان يتولى مملكة بيت المقدس وليم دي بوري "William de Bures" – صاحب طبرية – نيابة عن الملك المأسور(٣٧).

وبعد مقتل چبَلَكْ بن بَهْرام" سنة (٥١٨هـ/١١٢٤م)، قام خليفته تِمُرْتاش ابن إيلغازي – صاحب حلب وماردين – بإطلاق سراح بلدوين الثاني مع جوسلين مقابل فدية كبيرة بلغت ثمانين ألف دينار كما يروي ابن العديم بحيث يدفع مقدماً عشرين ألفاً، ويستلم تِمُرْتاش عدة حصون لحلب، وهي الأثارب وزَرْدَنا والجَزْر وكَفَر طاب وعْزاز، ولم يتم تسلم باقي الفدية إلا بعد سنة حيث أودع بلدوين الثاني ابنته الصغرى جوفيتا "Joveta" كرهينة حتى يتم دفع الفدية. وعندما حصل بلدوين – في سبتمبر (٥١٨هـ/١١٢٤م) – على حريته اتجه نحو أنطاكية، ولم يتجه لبيت المقدس، حيث أمضى ثمانية أشهر ينهب حلب وأعمالها حتى يجمع الأموال ليفتدي ابنته "جوفيتا". ومما يلفت الانتباه في ذلك الصدد تكرار ابن العديم وتأكيده وصف بلدوين الثاني بأنه صاحب أنطاكية ولم يصفه بأنه ملك بيت المقدس، وعموماً فقد تنصل بلدوين من تسليم تلك الحصون التي وعد بتسليمها لتِمُرْتاش، وكانت تلك الغارات على

حلب وأعمالها هي العامل الأهم الذي دفع أهل حلب أن يطلبوا من آق سنقر البرسقي – حاكم الموصل – تسلم مدينتهم، ولذلك زحف "آق سنقر" بقوات الموصل وأخذ حلب من أتباع تِمُرْتاش بن إيلغازي – الذي كان آنذاك في ماردين – الذي ضعف عن مواجهة الصليبيين، وعموماً أنقذ آق سنقر حلب من السقوط بيد الصليبيين، كما أنه سيتحالف مع طُغْتِكين – صاحب دمشق – لمواجهتهم. وتلك كانت أول مرة – خلال عصر العدوان الصليبي – يتولى حاكم الموصل أمر مدينة مهمة في بلاد الشام، وهي حلب التي كانت في موقف ضعيف في مواجهة العدوان الصليبي منذ قدوم الحملة الصليبية الأولى سنة (٤٩١هـ/١٠٩٨م) [٣٨].

وصحيح أن حكم آق سنقر لحلب لم يستمر طويلاً حيث قتله الباطنية في الموصل في ديسمبر (٥٢٠هـ/١١٢٦م)، ثم خلفه ابنه الضعيف المدعو عزالدين مسعود الذي أراد الاستيلاء على دمشق من أميرها طُغْتِكين – حيث اتهم طُغْتِكين بتدبير قتل والده – فمات في طريقه نحو دمشق، إلا أن توحيد الموصل مع حلب سيكون الخطوة الأهم لإقامة الجبهة الإسلامية الموحدة عندما سيقوم عمادالدين زنكي – صاحب الموصل – بضم حلب سنة (٥٢٢هـ/١١٢٨م)، وسيسعى لضم دمشق من أميرها بوري بن طُغْتِكين وخليفته ابنه إسماعيل[٣٩].

سابعاً – الأختان أليس وميلِزاند تدخلان في صراع القوى بقوة

وفي الوقت الذي بدأت فيه القوى المسلمة تتوحد وتنهض منذ عهد زنكي، إذ الكيان الصليبي يدخل في صراعات داخلية شديدة يكون للنساء نصيب كبير منها. ففي عام (٥٢٣هـ/١١٢٩م) قرر بلدوين الثاني تزويج ابنته الكبرى "ميلِزاند" بفولك "Fulk" كونت أَنْجو "Anjou" الذي وصل حديثاً من فرنسا، فقد رأى بلدوين أن عدم وجود وريث ذكر له سيعرض مملكته لخطر الانقسام في حالة وفاته، لذلك قرر تزويج ابنته بفولك حتى يرزق منها بمولود يحفظ حكم أسرة

بلدوين الثاني في المملكة[٤٠]. ولا تذكر المصادر فيما إذا كان لميلِزاند دور في إقناع والدها بالزواج أم أن تلك قناعة والدها. ويبدو أن تأخير زواج ميلِزاند عن أختها "أليس" – التي تزوجت قبل ثلاث سنوات – مرتبط بقضية وراثة المملكة، فبلدوين الثاني أخّر أمر زواج ميلِزاند حتى يختار لها الزوج الذي يناسبها لتولي أمر المملكة والكيان الصليبي ككل، وتم عقد الزواج في العام نفسه، وسيرزق فولك بمولودين، وهما بلدوين وذلك تيمناً باسم جده الذي يبدو أنه فرح به كثيراً حيث ضمن وراثته له، والآخر يُدعى عموري. وسيتخذ بلدوين من الإجراءات الاحترازية ما يضمن حفظ حكم ذريته في مملكة بيت المقدس بعد سنتين عندما سيشعر بقرب أجله، وهو ما سنذكره في حينه.

وبدأت أولى خطوات تطلع المرأة الصليبية للسلطة عندما قُتِلَ بوهيموند الثاني – أمير أنطاكية – في فبراير (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م) في معركة مع الأمير غازي بن الدانشمند صاحب سِواس، حيث اغتنمت أرملته "أليس" بنت بلدوين الثاني الفرصة فأرسلت رسولاً برسالة مستعجلة إلى عمادالدين زنكي – صاحب الموصل وحلب – ليتسلم أنطاكية، وتكون هي نائبة عنه في حكم أنطاكية. كانت تلك الخطوة الجريئة – غير المسبوقة – من امرأة صليبية كأليس توضح مدى شغفها بالسلطة ورفضها الخضوع لوالدها ملك بيت المقدس، فإذا كان زوجها بوهيموند الثاني قد خضع من قبل لوالدها فإنها ترفض الآن الخضوع له، كما أنها ترفض استبداد والدها الذي كان همه الأكبر هو إخضاع كل الإمارات الصليبية لسلطته. وعموماً اكتُشِفَ أمر الرسول والرسالة وزحف بلدوين بقواته نحو أنطاكية ليتولى أمرها، فأمرت "أليس" أتباعها بغلق البوابات لمنع والدها وقواته من الدخول، ولكن بلدوين تمكن من كسب بعض العناصر داخل أنطاكية حيث فتحوا له عدة بوابات فدخلها، وأخذ ينكل بالموالين لأليس المتمردة[٤١].

ويذكر ابن العديم أن بلدوين قطع أيدي وأرجل من تمرد عليه من الموالين لابنته، وعفا عن ابنته التي اعتذرت له بصورة مهينة. ويبدو أن السنوات السبع

التي أخضع فيها بلدوين أنطاكية لسلطته المباشرة قبل تسليم أنطاكية لصاحبها الشرعي بوهيموند الثاني في سنة (٥٢٠هـ/١١٢٦م) لم تغب عن ذاكرة أهالي أنطاكية الذين فضلوا سلطة عدوهم زنكي على بلدوين الثاني، والجدير بالذكر أن زنكي آنذاك لم يدخل في صراع كبير مع الصليبيين حيث لم يمضِ على توليه أمر حلب مع الموصل سوى سنتين، وهكذا التقت رغبة "أليس" مع رغبة أهالي أنطاكية، ولكن تلك المحاولة أخفقت فصارت أنطاكية تحكم مباشرة بواسطة بلدوين الثاني عن طريق بطريركها المسن برنارد "Bernard" حتى موت بلدوين نفسه بعد سنة فقط من تمرد أليس. وقد ذم المؤرخ الصليبي وليم الصوري – الذي اشتهر بولائه لأسرة بلدوين الثاني – تمرد "أليس" على والدها فينعته بقوله "وقاحة دنسة صادرة من امرأة رعناء"[٤٢].

وخوفاً من تمرد ابنته مرة أخرى قرر بلدوين تسليمها مدينتي اللاذقية وجَبَلة اللتين قد منحهما إياهما زوجها بوهيموند الثاني كصداق لها، أي أن بلدوين أجبر ابنته على الإقامة في إحدى هاتين المدينتين، ومنعها من الإقامة في مدينة أنطاكية خوفاً من محاولة عصيانها مرة أخرى. وقبل أن يغادر بلدوين الثاني أنطاكية نحو بيت المقدس فقد أخذ المواثيق والعهود على رجال أنطاكية – سواء كانوا جنوداً أم قادة أم غيرهم – أن يخلصوا في الحفاظ على ولائهم لحفيدته كونستانس ابنة بوهيموند الثاني التي كانت تبلغ آنذاك من العمر أربع سنوات فقط، ويسوّغ وليم عمل بلدوين ذلك بقوله: "ذلك أنه كان يتخوف من عمل شرير ترتكبه ابنته "أليس" فتحاول مرة ثانية حرمان ابنتها الصغيرة من ميراثها"، ونصب بلدوين قريبه جوسلين – صاحب الرُّها – وصياً على كونستانس حتى تبلغ فتتزوج، فيصير زوجها مستقبلاً شريكها في حكم أنطاكية[٤٣].

ولم يعش بلدوين الثاني كثيراً بعد عودته إلى بيت المقدس حيث أصيب

بمرض خطير أيقن معه بالموت فاستدعى ابنته "ميلِزاند" وختنه "فولك" وحفيده "بلدوين الثالث" – الذي بلغ آنذاك سنتين – وتوّجَّهم جميعاً، وأوكل إليهم أمور المملكة بحضور بطريرك بيت المقدس ورجال الكنيسة والأشراف. وتوفي بلدوين الثاني في الحادي والعشرين من أغسطس سنة (٥٢٥هـ/ ١١٣١م). ويؤكد وليم الصوري أن بلدوين قد عهد إلى هؤلاء الثلاثة بكل سلطات المملكة[٤٤]. ويبدو أن بلدوين قد أشرك فعلياً ميلِزاند مع فولك في حكم المملكة، كما أن المملكة ستؤول لبلدوين الثالث حال وفاة والده فولك حتى لو مات أبوه وهو قاصر، وهو ما سيحدث فعلاً.

ويصف وليم فولك – ملك بيت المقدس الجديد – بصفات منها أنه "مهذب الطبع ولين الجانب"، ويبدو أن ميلِزاند سوف تستغل هاتين الصفتين في زوجها "فولك" فتحاول أن تجعله طوع أمرها. وكان فولك قد تجاوز الأربعين عاماً واشتُهِرَ بضعف ذاكرته وكثرة نسيانه، ومع ذلك كان "عالماً بفنون القتال ومسعر حرب" كما يصفه وليم الصوري[٤٥]. والجدير بالذكر أن بلدوين الثاني قد منح ختنه فولك مدينتي صور وعكا كصداق لابنته ميلِزاند[٤٦]. وقد اغتنمت "أليس" فرصة وفاة أبيها بلدوين الثاني وذلك بعد سنة واحدة فقط من إحباطه تمردها عليه، فقامت بالتمرد على زوج أختها الملك فولك الذي تولى أمر المملكة، فاستقلت في حكم أنطاكية، وقد استمر تمردها السنة الأولى من حكم فولك، ويدين وليم الصوري تآمر "أليس" وحرمانها ابنتها "كونتسانس" الوريثة الشرعية لحكم أنطاكية، كما يتهمها برشوة وجهاء أنطاكية وبونز بن برتراند – كونت طرابلس – وجوسلين الأول دي كورتناي كونت الرُّها، وقد شكلت تحالفاً قوياً لمواجهة الملك "فولك"[٤٧]. وهكذا تمكنت امرأة طموحة أن تؤلب كل الإمارات الصليبية ضد استبداد مملكة بيت المقدس وتشكل تحالفاً قوياً لمواجهة "فولك" الذي ربما يراه المتحالفون امتداداً لتسلط بلدوين الثاني الذي حكم الإمارات الصليبية حكماً مركزياً

استبدادياً لم يعط فيه فرصة لتفويض غيره في الحكم في كل الإمارات الصليبية. وواضح أن "أليس" قد ازداد طموحها بعد وفاة والدها، فهي إذا كانت قد تجرأت من قبل على أبيها وتمردت عليه فهي الآن أكثر استعداداً للعصيان على حماها الذي لم تستمر مدة إقامته في المملكة سوى ثلاث سنوات منذ زواجه بأختها ميلِزاند، ويبدو أن فولك لم يتخذ إجراءات حازمة تجاه أنطاكية في السنة الأولى لحكمه، ولكن عندما قامت "أليس" بتشكيل تحالف ضده بدأ بالتحرك.

ويكيل وليم الصوري السباب لأليس فيصفها بـ "المرأة الخسيسة والوضيعة النفس، الموغلة في الشر، ولا تكلّ عن تدبير المكائد ضد الإمارة – أي إمارة أنطاكية – مستعينة في ذلك بشركاء لها في مشاريعها الرامية إلى حرمان ابنتها وابنة بوهيموند الثاني من أن ترث أباها، سعياً منها لأن تصفو الإمارة لها هي وحدها فتتزوج من جديد بمن يرتضيه هواها، لكن الملك بلدوين – أي أباها – الذي كان لا يزال على قيد الحياة – أفسد عليها ما دبرت، إذ أمر بإخراجها قسراً من أنطاكية، وأفهمها أن تقنع بنصيبها الذي كان زوجها جعله صداقاً لها وقت اقترانه بها، وأعني بذلك الصداق مدينتي جبلة واللاذقية الساحليتين. فلما مات أبوها ظنت أن الجو خلا لها وأن الوقت الموائم قد حان لتنفيذ خطتها"[٤٨]. ذلك الوصف لأليس وأهدافها في التفرد في حكم أنطاكية مستقلة وتشكيلها ذلك الحلف القوي ضد "فولك" لهو وصف دقيق لأهداف وطموحات تلك المرأة الجريئة التي استغلت ضعف فولك وتخوف الأمراء الصليبيين من تسلط فولك عليهم كما فعل من قبل بلدوين الثاني، فقد تزعمت ذلك التحالف بل إن وليم الصوري يؤكد رشوتها لبونز كونت طرابلس.

ويزعم وليم الصوري أن أهالي أنطاكية هم الذين حثوا "فولك" على إعادة أنطاكية إلى النظام وإلى سيادته المباشرة، وعموماً زحف فولك بقوات بيت المقدس نحو أنطاكية ماراً بمنطقة خاضعة لكونتية طرابلس قرب "الروج" حيث اصطدم بقوات بونز بن برتراند – كونت طرابلس – فهزمها وأسر

أغلبها، ثم تصالح الطرفان وأعاد فولك الأسرى لبونز، ثم دخل "فولك" أنطاكية وأخضعها لسلطته، وهكذا انحل ذلك التحالف بين "أليس" و"بونز" كونت طرابلس، ولا يستبعد أن امرأة بونز وهي "سيسيليا" - الابنة غير الشرعية لملك فرنسا فيليب الأول وأخت فولك من أمه، وهي أرملة أمير أنطاكية، الأسبق "تانكريد" قد حرضت زوجها ضد أخيها "فولك" ودعمت استقلالية إمارة أنطاكية النورمانية عن مملكة بيت المقدس الفرنجية(٤٩).

ويؤكد وليم الصوري كعادته على ولاء أهالي أنطاكية لسيادة ملك بيت المقدس على إمارة أنطاكية ويؤكد مدى حذر الملك من "أليس" فيقول: "بيد أن رجال الإمارة العقلاء خافوا - إن رجع الملك إلى دياره - أن تضطرب أمور الإمارة من جديد، وتشتعل بنار الفتنة الداخلية التي تتيح للأعداء الكفار "يقصد المسلمين" أحسن الفرص لمهاجمتها، لذلك توسلوا إلى الملك أن يطيل بقاءه بين ظهرانيهم فاستجاب لهم عن رضا وطيب خاطر، شعوراً منه بأن مملكته هي ذاتها تتمتع بفضل الرب بالاستقرار التام، بينما أنطاكية - التي هو فيها الآن - في أمس الحاجة إلى من يحميها، ومن ثم مكنته حصافته من ترتيب أمور كل من المدينة والمناطق المجاورة لها، مستعيناً في ذلك بنصيحة وجوه رجالاتها وموافقتهم...". وبعد أن اطمأن فولك على أنطاكية أوكل مسؤولية رعايتها لرينييه ماسوييه "Reynald Mazoir" كنداصطبل أنطاكية "قائد فرسانها"(٥٠). ويبدو أن وليم يقصد أن "رينييه" صار نائباً عن الملك في أنطاكية، أي أن فولك أعاد سياسة بلدوين الثاني الذي اعتبر أنطاكية كإحدى أملاكه مبدياً في ذلك حرصه الشديد في حفظ الإمارة لوريثتها الصغيرة "كونتسانس" كما فعل من قبل ذلك بلدوين الثاني عندما كان يتولى أمرها "روجر" وصياً على بوهيموند الثاني الذي سبق الحديث عنه.

ويذكر وليم الصوري إشارة - غير مباشرة - تدعم فرضية أن "سيسيليا" - أخت فولك غير الشقيقة "من أمه" وزوجة بونز كونت طرابلس - قد دعمت

التحالف بين أليس وبونز وجوسلين الأول ضد فولك، فعندما حاصرت قوات زنكي قلعة "مونتفراند" – بارين – في (٥٢٦هـ/١١٣٢م) حصاراً شديداً ذهبت "سيسيليا" شخصياً إلى "صيدا" لمقابلة أخيها فولك تتوسل إليه لإنقاذ زوجها وتأخير ما عزم عليه من حملة عسكرية متجهة إلى أنطاكية، فيقول وليم: "فألحت في التوسل إليه أن يدع في لحظته تلك جانباً كل ما يشغله حتى ينصرف لتخليص زوجها من وضعه الذي يبعث الأسى في النفوس، فحرك تضرعها قلب الملك الذي أجَّل مؤقتاً الموضوع الذي خرج من أجله" فقام الملك بالزحف بقواته نحو قوات زنكي التي فكت حصارها عن بارين عندما علمت بزحفه نحوها(٥١). ويبدو أن فولك كان ينتظر اللحظة التي تأتيه فيها أخته "سيسيليا" ذليلة تتوسل إليه فيظهر لها أنه مشغول بأمور أهم من زوجها الذي كان قبل قليل في حلف ضده ويرفض الخضوع لسلطته، وعموماً سواء كانت "سيسيليا" محرضة أم ساكتة عن ذلك الحلف فذلك لا يرضي فولك الذي يريد من أخته أن تكون له عوناً له فيصير "بونز" طوع أمره، وليس متمرداً وعاصياً.

ثم حقق "فولك" نصراً على قوات مسلمة قرب قنسرين يقودها "سِوار" نائب زنكي في حلب، ثم عاد إلى أنطاكية، ويزعم وليم الصوري أن كل أهالي أنطاكية – حتى من كان يؤيد تمرد "أليس" من قبل – أحبوا آنذاك "فولك"، والوحيدة التي كرهت فولك هي "أليس" ونقمت على بقائه في أنطاكية. وقد طالت إقامته في أنطاكية حتى أنها أصبحت مركز سلطته وإقامته، ويبدو أن نائبه "رينييه ماسوييه" لم يعد له أية صلاحيات في تدبير شأن إمارة أنطاكية نظراً لخوف فولك من تجدد عصيان أليس التي يصفها وليم بأنها "امرأة حُجبت الرحمة من قلبها ففاض بالشر". وعلى الرغم من تولي فولك لمملكة بيت المقدس إلا أن اهتمامه بأنطاكية وتوطيد سيادته فيها – خوفاً من عصيان أليس التي كانت تنوي حرمان ابنتها "كونتسانس" من حقها الشرعي

في حكم أنطاكية – خلفاً لوالدها بوهيموند الثاني – فاق اهتمامه بأمر المملكة، ويبدو أن فولك أراد التفرغ لأمر المملكة فقرر – في سنة (٥٣٠هـ/١١٣٦م) – بعد خمس سنوات من حكمه المباشر لأنطاكية – تزويج كونستانس التي كانت تبلغ من العمر آنذاك تسع سنوات فقط بمن يراه كفؤاً لحكم أنطاكية، وقد وقع اختياره أخيراً على ريمون دي بواتيه "Reymond de Poitiers" وهو ابن وليم كونت بواتيه(٥٢).

ثامناً – الملكة ميلِزاند تكسر شوكة زوجها الملك فولك

وبينما كان الملك فولك مشغولاً – بين سنتي (٥٢٩ و٥٣٠هـ/ ١١٣٤ و١١٣٦م) في تدبير إمارة أنطاكية وتزويج كونستانس بنت بوهيموند الثاني – ظهرت إشاعات تقول: بأن هيج "Hugh" – كونت يافا – و رومان دي بوي "Romain de Puy" – صاحب ما وراء الأردن – يتآمران على حياة سيدهما الملك فولك. وكان هيج ذلك ابن خالة "ميلِزاند" من أبيها بلدوين الثاني، فقد ظهرت شائعة تقول بخيانة ميلِزاند لزوجها بإقامتها علاقة غير شرعية مع هيج أثارت غيرة الملك فولك، ويقلل وليم الصوري من أهمية تلك الإشاعة مع أنه يفصل كثيراً في طبيعة تلك العلاقة التي كانت تربط ميلِزاند بهيج، ويؤكد أن السبب الحقيقي لعصيان هيج يعود لصلفه وغروره ورفضه الخضوع لإرادة الملك كبقية أتباع الملك، وحدث أن قام "ولتر" – وهو صاحب "قيسارية" وابن زوجة هيج نفسه – واتهم عمه "هيج" بالخيانة والتآمر على حياة الملك، وكان الاتهام على رؤوس الأشهاد، فأنكر "هيج" الاتهام، إلا أنه رضي بما يحكم به بلاط الملك، فتداول رجال البلاط وقرروا أن يتبارز "هيج" مع "ولتر"، فتخلف "هيج" عن المبارزة وفرّ إلى إقطاعه في يافا، ومهما كانت أسباب فراره فقد دَعَّم فراره الاتهام، مما أدى إلى إدانته غيابياً بالتآمر على حياة الملك، فاضطر "هيج" إلى الفرار إلى "عسقلان" طالباً العون من الفاطميين(٥٣).

وأخيراً قام الوسطاء بالتوسط بين الملك والكونت "هيج"، ونجحت الوساطة وسمح الملك للكونت وحلفائه بالعودة إلى المملكة، وفي أحد الأيام كان الكونت "هيج" في حانوت أحد تجار "يافا" فإذا بفارس صليبي من "بريتاني" يضربه بسيفه، ولكنه نجا من الموت، وعموماً حوكم ذلك الفارس وأدين بمحاولة الاغتيال، واشترط الملك فولك أن يُقطع ذلك الفارس عضواً عضواً، وآخر ما يُقطع منه هو لسانه حتى يُبَرِّئَ الملك ساحته ممن اتهمه بأنه هو الذي أمر ذلك الفارس بقتل هيج – كونت يافا – خصمه، والذي اتهم بالطعن في شرف زوجة الملك، وتم الإعدام بتلك الطريقة، وبذلك برأ الملك ساحته، وظل هيج في المملكة حتى شفيت جراحه، وغادر المملكة حانقاً وغاضباً ومتأسياً حيث نزل عند ابن عم والده روجر دوق أبوليا الذي أحسن وفادته، ولم يطل به العهد حتى توفي(٥٤).

وما يهمنا من تلك الحادثة أن الملكة "ميلِزاند" قد حنقت وغضبت غضباً شديداً على كل من اتهمها بإقامة علاقة بالكونت، كما زاد حزنها محاولة قتل الكونت وهربه خوفاً على نفسه، فراحت تصب غضبها على روهارد صاحب نابلس "Rohard of Nablus" الذي كان له دور كبير في إثارة غيرة الملك من هيج، ولم يجرؤ أحد من خصومها بمن فيهم الملك فولك أن يدخل عليها وهي وسط أقاربها خوفاً من تعرضه للقتل على يدها، وبعد مفاوضات طويلة توسط فيها أقارب الملكة – بطلب من الملك فولك – تمكنوا من تخفيف غيظها، ولكنهم ظلوا لا يأمنون كيدها، وكان الملك فولك يبذل كل جهده لتخفيف غلوائها وحقدها، ويسعى لتهدئة ثائرتها، فاضطر إلى مشاورتها في كل صغيرة وكبيرة في أمور المملكة. وهكذا كانت تلك الحادثة فرصة تمكنت "ميلِزاند" بها أن تخضع زوجها الملك فولك الذي يبدو أنه كان لا يُعطي لها أهمية خاصة، حتى إنها طلبت منه السماح لأختها الأميرة "أليس" أن تقيم بمدينة أنطاكية، فسمح لها على الرغم من منع أبيها الملك بلدوين الثاني إقامتها في المدينة(٥٥).

تاسعاً – تزويج الطفلة كونستانس – أميرة أنطاكية – وتنامي صراع القوى

وتمت في سنة (٥٣٠هـ/١١٣٦م) صفقة بتدبير الملك فولك بين رالف "Ralph" – بطريرك أنطاكية الجديد – وريمون دي بواتيه الذي كان آنذاك في بلاط ملك إنجلترا هنري الأول، فقد تعهد ريمون "لرالف" أن يقف إلى جانبه ضد رجال الدين في أنطاكية الذين يعارضون تعيينه بطريركاً لها، وذلك لأن تنصيبه تم من عامة الناس وليس من رجال الدين، كما تعهد ريمون بقسم يمين الولاء "لرالف"، وتلك إشارة إلى تحول بطريرك أنطاكية إلى حاكم سياسي أكثر من كونه رجل دين، كما قام رالف بإيهام "أليس" أن ريمون قادم للزواج منها وليس من ابنتها الطفلة، وفعلاً قام "رالف" بترتيب أمر تلك الصفقة، كما طمأن "رالف" ريمون – في حالة مطالبة هنري – أخي ريمون – بحكم أنطاكية – نظراً لقرابتهم من أسرة "بوهيموند" – بأنه سيقنع "هنري" بالزواج من "أليس" التي تملك مهرها من زوجها بوهيموند الثاني وهما مدينتا جبلة واللاّذقية الساحليتان(٥٦).

ويعرض وليم الصوري تفاصيل تلك الصفقة بصورة دراماتيكية حيث يتخفى "ريمون" بزي الحجاج الفقراء خوفاً من أن يقع بيد روجر – دوق أبوليا – عندما قدم من إنجلترا ماراً بممتلكات روجر – دوق أبوليا – الذي يرى أنه أحق النورمان بحكم أنطاكية لكونه ابن عم بوهيموند الأول من أبيه، ثم نجح "ريمون" في الوصول لأنطاكية حيث "أليس" تنتظر العريس فإذا به يُزَفُّ لابنتها "كونتسانس" الطفلة. وهكذا تمكن فولك بالتعاون مع "رالف" من تدبير ذلك الزواج الغريب نكاية بأليس العنيدة المتمردة التي كُسرت شوكتها بتلك الخدعة، وبذلك ضُرب تحالف "أليس" بمقتل بذلك الزواج، وتفوق كيد فولك

وأعوانه على كيدها، وخرجت "أليس" من ذلك الصراع وهي تتسعر غيظاً، ويتهكم عليها "وليم الصوري" فيصفها "بالساذجة" وكان قبل ذلك يتهمها بالكيد والدهاء والحقد، وبعد إتمام الزواج خرجت "أليس" إلى إقطاعها حانقة، كما استبد ريمون بحكم أنطاكية ونسي يمين ولائه لرالف، بل نكّل به وانحاز إلى خصومه[٥٧].

وأثناء إنشغال أنطاكية بعرس كونستانس وريمون دي بواتيه في (٥٣٠هـ/ ١١٣٦م) باغت الأمير سوار – والي حلب من قبل زنكي – اللاّذقية وأعمالها التابعة لإمارة أنطاكية، والجدير بالذكر أن اللاّذقية كانت إقطاعية لأليس، وحصل على غنائم كبيرة سواء من الأسرى أم الماشية. ويصف ابن القلانسي تلك النكبة فيقول: "وتلك نكبة ما مُني الإفرنج الشماليون بمثلها"، كما أن ابن القلانسي يشير إلى قلة حيطة أهالي أنطاكية وعدم احترازهم من الغارات في تلك المنطقة إذ يبدو أن غارات المسلمين آنذاك لم تكن تتوغل حتى تصل اللاّذقية[٥٨].

قام قائد جيش دمشق المعروف ببزواج في (رجب ٥٣١هـ/مارس ١١٣٧م) بغارة خاطفة على قوات بونز بن برتراند – كونت طرابلس – قرب قلعة "تلة الحجاج"، فانهزم بونز وقواته، وسقط أسيراً بيد النصارى السريان الذين سلموه للمسلمين فقتلوه، أو ربما قام السريان أنفسهم بقتله. وتولى "ريمون" ابن بونز كونتية طرابلس، خلفاً لوالده، وعُرف بريمون الثاني، وقام بمعاقبة السريان الذين غرروا بوالده[٥٩].

ويبدو أن ريمون الثاني تزوج هوديرنا "Hodierna" ابنة بلدوين الثاني قبل توليه حكم طرابلس سنة (٥٣١هـ/١١٣٧م)، ولا يستبعد أن يكون ذلك الزواج السياسي بتدبير من الملكة مليزاند، وستدخل "هوديرنا" في تنافس مع أختيها "أليس" وخميلِزاندخ على السلطة، وهو ما سنتناوله لاحقاً.

حقق زنكي في (٥٣١هـ/١١٣٧م) نصراً كبيراً على فولك – ملك بيت المقدس – وقوات طرابلس قرب "بارين"، وسقط ريمون الثاني – كونت طرابلس – في أسر زنكي، فاضطر فولك للالتجاء إلى حصن "بارين"، وشدد زنكي حصاره، فطلب فولك الأمان، وطلب إطلاق سراح ريمون الثاني الذي أسره زنكي في تلك المعركة، كما تعهد فولك بدفع خمسين ألف دينار مقابل الحصول على الأمان، وتم تحقيق الاتفاق. ويبدو أن فولك استعجل الوصول لذلك الاتفاق لأنه لم يدر أن قوات الرُّها بقيادة كونتها الجديد جوسلين الثاني – الذي خلفه والده سنة (٥٢٥هـ/ ١١٣١م) بعد مدة قصيرة من وفاة بلدوين الثاني – وقوات أنطاكية بقيادة ريمون دي بواتيه كانت قادمة لنصرته، وذلك على الرغم من أن أنطاكية آنذاك كانت محاصرة من قبل قوات الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثاني "John II"[٦٠].

وعندما وصلت أخبار زواج "كونتسانس" بريمون دي بواتيه إلى الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثاني اشتاط غضباً، ذلك أنه كان يرى أن أنطاكية تابعة إقطاعياً له، وفقاً لاتفاقية القسطنطينية سنة (٤٩٠هـ/١٠٩٧م) التي تعهد فيها قادة الحملة الصليبية الأولى الخضوع إقطاعياً للإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين، كما أسلفنا من قبل، فلا يحق لأهلها أن يتصرفوا بذلك الشأن المهم دون أخذ موافقته، فقام يوحنا الثاني – في العام نفسه أي (٥٣١هـ/١١٣٧م) – بالزحف بقواته نحو إقليم قليقية – جنوب شرق الأناضول – وانتزعه من سلطة أنطاكية، وظلت قليقية حوالي أربعين عاماً خاضعة لأنطاكية، ويحكمها آنذاك ابن ليون الأرمني نيابة عن أمير أنطاكية. كما حاصر يوحنا أنطاكية ولكنه لم يتمكن من السيطرة عليها، وتم ذلك الحصار بينما كان الملك فولك مُحاصراً في بارين من زنكي كما سبق الحديث عنه[٦١].

وكانت تلك الخطوة من يوحنا مقدمة لمشروع متكامل لإخضاع أنطاكية حيث قاد في السنة التالية حملة كبيرة أجبر بها ريمون دي بواتيه وكذلك

كونت الرُّها جوسلين الثاني أن يدخلا معه في حلف للاستيلاء على مدن إسلامية مهمة منها مدينتا حلب وشيزر، بحيث يسلم يوحنا حلب وشيزر لريمون – ضمن تبعيته الإقطاعية ليوحنا – ويقوم ريمون من جانبه بتسليم أنطاكية للإمبراطور. وفعلاً قاد يوحنا قواته في أبريل سنة (٥٣٢هـ/١١٣٨م) مع قوات أنطاكية والرُّها، وحاصر شيزر، ولكنها أخفقت في الاستيلاء عليها نظراً لنجدة زنكي لها، فانفرط التحالف البيزنطي الصليبي، ولا يهمنا تفاصيل الحملة، ولكن يهمنا أن يوحنا أصر على تسلم أنطاكية من ريمون، فقام سنة (٥٤٥هـ/ ١١٤١م) بحملة جديدة ضد أنطاكية، فاستشار ريمون وجهاء أنطاكية في أمر تسليم المدينة ليوحنا، فأشاروا عليه أن يعتذر عن تسليم المدينة لأنه مؤتمن عليها لكونه زوج كونستانس صاحبة الحق الشرعي في حكم أنطاكية فلا يحق له أن يتصرف بمفرده، كما أنه حتى في حالة موافقة كونستانس وريمون فإن أهالي أنطاكية سيقومون بعزلهما عن حكم أنطاكية وتنصيب غيرهما لحفظ الإمارة والمدينة. وبلغت الإمبراطور البيزنطي يوحنا آنذاك أخبار تفيد شدة غضب أهالي أنطاكية عليه ورفضهم تسليم مدينتهم له وإصرارهم على مواجهته فأجَّل موضوع أنطاكية وعاد إلى قليقية تحاشياً لزمهرير الشتاء(٦٢).

وعندما أخفقت تلك المحاولة قام يوحنا بإرسال سفارة للملك فولك يخبره بعزمه على زيارة الأماكن المقدسة للحج ولتقديم العون للصليبيين، وعلم "فولك" بنية يوحنا فأوجس منه خيفة، فلم يسبق أن عرض إمبراطور بيزنطي أن يقود بنفسه جيشاً لمساعدة الصليبيين، فوافق فولك على الزيارة مضطراً شرط أن يقود الإمبراطور فقط عشرة آلاف رجل بحجة أن مملكة بيت المقدس تتعرض آنذاك لمجاعة وشدة، فسحب الإمبراطور الاقتراح، وانتظر قدوم الربيع للاستيلاء على أنطاكية، وحدث أن خرج الإمبراطور إلى "عين زربة" – قرب عاصمة إقليم قليقية الواقع جنوب شرق آسيا الصغرى

– في رحلة صيد، فأصاب يده بنصل سهمه إصابة بسيطة ولكن الجرح التهب، فنصحه الأطباء ببتر يده، فرفض، فمات بسبب ذلك في (٥٣٨هـ/ابريل ١١٤٣م). وقد أوصى يوحنا لابنه الأصغر – الذي كان يصحبه وهو مانويل "Manuel I" – بخلافته، وبذلك نجت أنطاكية لانشغال البيزنطيين في أمر خلافة يوحنا حيث قام مانويل بالقبض على أخيه الأكبر إسحاق "Isaac" الذي نصب نفسه إمبراطوراً، بعد وفاة والده في العاصمة القسطنطينية(٦٣).

خرج الملك فولك مع زوجته ميلِزاند في نزهة قرب عكا في (٥٣٦هـ/نوفمبر ١١٤٢م)، وحدث أن طارد الملك وحرسه أرنباً، فسقط عن جواده، فارتطم رأسه بسرج جواده وفقد وعيه وأصيب إصابة قاتلة، ولكنه لم يلفظ أنفاسه، وعندما وصلت أنباء ذلك الحدث لميلِزاند قامت مسرعة لمكان الحدث لتقوم بدور المرأة المفجوعة بزوجها، فمزقت ثيابها، وجذبت شعرها، وأصدرت عويلاً يليق بفقد زوجها. ويبدو أن إفاضة وليم الصوري بوصف حزن "ميلِزاند" هو لإظهار حزنها الشديد لفقده وليس فرحها لموته نظراً لاتهام أتباع فولك لميلِزاند في شرفها، وعموماً لفظ الملك فولك أنفاسه الأخيرة في العاشر من نوفمبر ١١٤٢م بعد حكم امتد إحدى عشرة سنة مليئة بالحوادث المحزنة منها والسعيدة(٦٤).

عاشراً – مليزاند شريكة لابنها بلدوين الثالث في مملكة بيت المقدس

وتم تتويج بلدوين الثالث مع أمه في الخامس والعشرين من ديسمبر من العام نفسه، وكان بلدوين يبلغ من العمر آنذاك ثلاثة عشر عاماً فقط. كان تتويج ميلِزاند مع ولدها بلدوين يؤكد أنها ستتحكم في المملكة، كما كان حالها عندما شاركت زوجها الملك فولك في حكم المملكة خاصة بعد حادثة محاولة اغتيال ابن خالتها "هيج" في سنة (٥٣٠هـ/١١٣٦م)، حيث كان "فولك" يستشيرها في كل أمر حتى لو كان تافهاً(٦٥).

صارت "ميلِزاند" بذلك التتويج وصية على ابنها، ويصفها وليم الصوري بأوصاف تؤكد تفوقها على خيرة الرجال القادة، وكان ابنها صغيراً مطواعاً لأمه في السنوات الأولى لحكمه، ولكن ذلك الوضع تغير عندما بلغ عمره الحادية والعشرين، فعمل على رفض وصاية أمه التي تمنت لو أنه لا يكبر ويبقى طفلاً حتى تستمر في حكم المملكة بوصفها وصية عليه. ويصف وليم حياة بلدوين في سنوات مراهقته بأنه كان مستسلماً لشهوات البدن(٦٦)، ويبدو أن أمه كانت تريد إشغاله بتلك الشهوات حتى لا يستغني عن وصايتها عليه في حكم المملكة عندما يبلغ السن القانوني، وهو الحادية والعشرون.

والغريب أن وليم الصوري الذي يثني على حكمة ورجاحة عقل ميلِزاند يذكر حدثاً مهماً وهو تحرير عمادالدين زنكي مدينة الرُّها في (١٦ جمادى الآخرة ٥٣٩هـ/٢٣ ديسمبر ١١٤٤م) بالتفصيل، ويسهب في شدة الحصار الذي فرضه زنكي على المدينة الذي امتد طويلاً، فاستغل زنكي عدم وجود جوسلين الثاني كونت الرُّها في عاصمته الرُّها وذلك لانشغاله بشهواته وملذاته في حصن تل باشر، فسهل ذلك في تحريرها. والغريب أن ميلِزاند لم تقم بنجدة الرُّها بل اكتفت بحثّ ريمون دي بواتيه – أمير أنطاكية – أن يسرع لنجدة جوسلين الثاني الذي كانت العداوة بينهما على أشدها، فلم يحرك ريمون ساكناً، ووقف موقف المتفرج، وبعد شهرين من مقتل زنكي سنة (ربيع الآخر ٥٤١هـ/١١٤٦م) – عند حصاره لقلعة جعبر وانقسام دولته بين ابنيه سيف الدين غازي الذي تولى الموصل وأخيه الأصغر نورالدين محمود الذي تولى حلب – قام جوسلين الثاني باستعادة مدينة الرُّها لعدة أيام فقط، فزحف نورالدين بقواته الكبيرة – تقدر بعشرة آلاف فارس – فاستعادها بسرعة، وبذلك أكّد أنه خليفة والده في مواجهة أطماع الصليبيين، وأنه لن يتوانى عن تشكيل الجبهة الإسلامية الموحدة لمواجهة الصليبيين على الرغم من أنه كان يحكم آنذاك حلب تحت سلطة أخيه الأكبر سيف الدين غازي

الاسمية، كما خطا نور الدين خطوة نحو ضم دمشق للجبهة الإسلامية بزواجه من ابنة أتابك دمشق الأمير معين الدين أنَر[٦٧].

وعموماً لم تحرك ميلِزاند – بعد ضياع الرُّها – ساكناً لاستعادة تلك المدينة المهمة من زنكي، وكأن ذلك الأمر لا يعنيها أو ربما كانت تنتظر حملة صليبية قادمة من الغرب لتقوم بتلك المهمة نيابة عنها، والأغرب من ذلك أن "ميلِزاند" أقدمت على مغامرة عسكرية خطيرة في (محرم ٥٤٢/يونيو ١١٤٧م) عندما استجابت لطلب والي "بصرى" ألتنتاش – الذي تمرد على سيده أمير دمشق مجيرالدين أبَق وأتابكه معين الدين أنَر، وطلب من "ميلِزاند" أن تستلم حصني بصرى وصرخوهما، وهما حصنان في إقليم حوران جنوب دمشق، وهو إقليم جاف وحار جداً في الصيف، وينعدم فيه الماء، ولكن يمثل بعداً استراتيجياً لمملكة بيت المقدس الصليبية، ويذكر وليم أن سكان تلك المناطق لا يعيشون في مساكن بل يعيشون في مغارات وكهوف[٦٨].

وفعلاً قاد بلدوين الثالث حملة عسكرية كبيرة منيت بخسائر فادحة، وكادت أن يُقضى عليها تماماً، ورجعت خائبة بخفي حنين حيث سلّمت زوجة "ألتنتاش" بصرى للتركمان – التابعين لإمارة دمشق – قبل وصول الصليبيين لها، والجدير بالذكر أن "أنر" كان من قبل حليفاً مخلصاً للصليبيين فإذا به يُكافأ على ذلك بذلك الجحود ونكران الجميل، ويرجع تحالف "أنر" سابقاً مع الصليبيين ضد نور الدين – الذي خلف والده زنكي في حلب في (ربيع آخر ٥٤١هـ/ سبتمبر ١١٤٦م) – لخوفه من نور الدين محمود بن زنكي – صاحب حلب – الذي كان يهدد دمشق ويسعى لضمها لحلب، وهو ما سيحققه سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م). وعموماً قام نورالدين محمود بنصرة "أنر" ضد قوات بيت المقدس – التي سعت لأخذ بصرى وصرخد – التي رجعت مثخنة بالجراح وحاملة القتلى على ظهور الجمال حتى يظن العدو أنهم لم يفقدوا أحداً. وقد فصل وليم الصوري في ذكر الأهوال التي واجهتها قوات بلدوين

الثالث فيقول: "لا يستطيع أحد على قيد الحياة أن يتذكر أي حملة محفوفة بالمخاطر – خلال حكم اللاّتين في الشرق – كتلك الحملة المشؤومة التي لم تؤد إلى نصر حاسم على الأعداء"، ومع ذلك لم يعاتب وليم ميلِزاند على مغامرتها تلك التي جاءت في وقت غير مناسب، وزادت من مشاكل المملكة التي فقدت صداقتها وتحالفها مع دمشق، وقد كان الأولى بقوات مملكة بيت المقدس الصليبية أن تستعيد مدينة الرُّها التي حررها زنكي قبل حوالي سنتين ونصف(٦٩).

وبعد تحرير زنكي للرها دعت البابوية لحملة صليبية جديدة، وهي التي تعرف بالحملة الثانية، والتي قادها ملكا ألمانيا وفرنسا. وقد تلقت الحملة الألمانية – التي تقدر بسبعين ألف مقاتل يقودها الإمبراطور كونراد الثالث – هزيمة ساحقة على يد سلاجقة الروم المسلمين بقيادة مسعود بن سليمان بن قُتْلمش قرب ضوريليوم بآسيا الصغرى، وذلك في (٥٤٢هـ/٢٨ أكتوبر ١١٤٧م) وقُتِل حوالي تسعة أعشار الجيش الألماني، ثم تلقت قوات ملك فرنسا لويس السابع – وتقدر كذلك بسبعين ألفاً – هزيمة أقل شدة في لادسيا "دينزلي الحديثة" في (٥٤٢هـ/٢٧ ديسمبر ١١٤٧م) على يد القوات المتقدمة نفسها وفقدت حوالي ثلاثين ألفاً، ولا يهمنا تفاصيل الحملة إلا أنه يهمنا ما يتصل بموضوع البحث. فقد اجتمع لويس السابع وكونراد الثالث وبلدوين الثالث وأمه ميلِزاند في عكا في (محرم ٥٤٤هـ/مايو ١١٤٨م) ليقرروا وجهة الحملة، وقد تغيب كل من أمير أنطاكية "ريمون دي بواتيه" وكونت طرابلس "ريمون الثاني" وكونت ما تبقى من الرُّها "جوسلين الثاني" وذلك احتجاجاً منهم لعدم تحقيق رغباتهم الخاصة من الحملة، فحتى جوسلين الثاني لم يلتفت القادة الصليبيون إلى إعادة الرُّها له، وهي التي يفترض أن تكون الهدف الأهم للحملة، ويبدو أن ميلِزاند – التي يصفها وليم الصوري برجاحة العقل وتفوقها على الرجال – أرادت أن تذل إمارة دمشق

التي أحبطت حملتها – قبل أقل من سنة – عندما حاولت الاستيلاء على بُصرى، ولذلك أقنعتهم بفكرة الاستيلاء على مدينة دمشق. والغريب أن تلك الحملة التي يقدرها ابن القلانسي بخمسين ألف مقاتل، والتي استغرق الإعداد لها وحشدها أربع سنوات، لم يدم حصارها لدمشق سوى خمسة أيام عادت بعده خائبة بعد أن واجهت مقاومة شديدة(٧٠).

وليس هدفنا ذكر تفاصيل أسباب إخفاق الحملة، ولكننا نؤكد أن فكرة الاستيلاء على دمشق عززت أهمية تعاون المسلمين ودعمت موقف نورالدين محمود بن زنكي – صاحب حلب – في ضرورة إقامة جبهة إسلامية موحدة تدخل ضمنها دمشق في دولته، وهو ما سوف يتحقق بعد ست سنوات من ذلك التاريخ أي في عام (صفر ٥٤٩هـ/أبريل ١١٥٤م). وهكذا جاءت مغامرة ميلِزاند لضم بصرى وتعمدها إذلال دمشق بنتائج عكسية على مملكة بيت المقدس.

فالحملة الصليبية الثانية التي قادها ملكان يقود كل منهما قوة تقدر بسبعين ألف مقاتل، استغرق إعدادها وقتاً طويلاً ومالاً كثيراً، لم تحقق مكسباً للكيان الصليبي، بل كرست الخلافات بين القادة الصليبيين خاصة وبين ريمون دي بواتيه – أمير أنطاكية – وجوسلين الثاني كونت ما تبقى من الرُّها، كما أن استهداف الحملة الثانية لدمشق سيعزز فكرة تحالف دمشق مع حلب بقيادة نورالدين، وبذلك اشتركت قوات دمشقية مع نورالدين – تقدر بستة آلاف فارس وفقاً لابن القلانسي – في حرب خاطفة وحاسمة ضد أمير أنطاكية ريمون دي بواتيه – الذي كان يقود حوالي أربعمائة فارس وألف راجل – فحقق نورالدين نصراً كبيراً بالقرب من حصن إنَّب في (٢١ صفر ٥٤٤هـ/ ٢٩ يونيو ١١٤٩م)، وقُتل ريمون نفسه في المعركة(٧١).

وبعد ذلك النصر دخلت بعض الأقاليم التي كانت تابعة لأنطاكية تحت سلطة نورالدين كأفامية، وفي ذلك الصدد يجدر بنا أن نشير إلى أن بطريرك أنطاكية أرسل آنذاك إلى جوسلين الثاني – عدو ريمون – يدعوه لاستلام أنطاكية متخطياً

كونستانس وابنيها وابنتها، ثم نهض الملك بلدوين الثالث بقواته لنجدة أنطاكية خوفاً من سقوطها بيد نورالدين الذي تعمد عدم احتلالها، وقام باحتلال حصون قريبة منها مثل حارم. ويذكر وليم الصوري أن بلدوين الثالث قفل راجعاً إلى مملكته بعد أن استقرت أوضاع أنطاكية، وربما أسند أمورها لبطريركها الذي قد أرسل إلى جوسلين الثاني يدعوه لاستلام الحكم في أنطاكية. ويبدو أن خبر تحرك جوسلين نحو أنطاكية وصل نورالدين محمود – صاحب حلب – عن طريق كونستانس ومؤيديها الذين يستحيل أن يتقبلوا جوسلين الثاني أميراً عليها، فقررت التغرير بجوسلين الثاني فأخبرت التركمان بتحرك جوسلين فقاموا بأسره. ويذكر وليم الصوري أن جوسلين ذهب لقضاء حاجته ليلاً فوقع أسيراً بيد قطاع الطرق الذين سلّموه لنورالدين، ويتهجم وليم عليه فيقول "وهكذا جنى ثمار فسقه وخلاعته، وانتهى الأمر إلى أسوأ نهاية يمكن تصورها". والغريب أن حرس جوسلين لم يكتشفوا خطفه إلا فجراً(٧٢).

وبذلك جاءت فرصة جديدة لامرأة صليبية أخرى لتتحكم فعلياً في إحدى الإمارات الصليبية وهي امرأة جوسلين الثاني المدعوة "بياتريس" Beatrice، التي صارت وصية على ابنها القاصر جوسلين الثالث – الذي خلف والده المأسور – واستعانت بمستشاريها، وصارت الحاكمة الفعلية.

ويوضح وليم الصوري مدى قدرتها على إدارة أمور كونتيتها، فيقول: "وحاولت جهدها الاستعانة بمعونة كبار الرجال الذين لا زالوا في المملكة – أي كونتية الرُّها – أن تحكم الناس بأحسن ما في قدرتها وبما فوق طاقة أي امرأة، فصرفت همتها إلى تقوية البلاد وزيادة تحصينها، وتزويدها بالرجال والطعام". وبذلك صار لدينا بحلول سنة (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) إمارتان صليبيتان تُحكَمان مباشرة من النساء، وهما، إمارة أنطاكية التي تحكمت بها "كونتسانس" وصية على ابنها القاصر بوهيموند الثالث، و"بياتريس" –

كونتيسة الرُّها – وصية على ابنها القاصر جوسلين الثالث، وكان الأولى بوليم أن يقول إن مملكة بيت المقدس نفسها كانت تدار من قبل امرأة وهي الملكة ميلِزاند وليس بلدوين. ويرجع وليم تحكم النساء في الكيان الصليبي آنذاك إلى عقاب الرب للصليبيين لما اقترفوه من خطايا، كما يصف حال هاتين الإمارتين بما يلي: "إذا قُضي على هاتين الإمارتين أن تحرما من توجيهات أميريهما، ولكنهما احتفظتا بكيانهما – وإن يكن ذلك بصعوبة – تحت حكومة النساء" (٧٣).

الحادي عشر – تخلص بلدوين الثالث من وصاية أمه مليزاند وتساقط حكومات النساء

بلغ بلدوين الثالث في سنة (٥٤٦هـ/١١٥١م) واحداً وعشرين عاماً، وهو السن القانوني لتنصيبه ملكاً شرعياً دون وصاية أحد عليه، وأخذ يتطلع أن يحكم منفرداً ويتخلى عن وصاية أمه ميلِزاند التي ترى أنها ليست فقط وصية عليه بل هي شريكة في حكم المملكة منذ أيام أبيها بلدوين الثاني عندما توّجت هي مع زوجها فولك وابنها بلدوين الرضيع قبيل وفاة أبيها بلدوين الثاني، كما أنها صارت شريكة لزوجها فولك في الحكم بعد وفاة والدها بلدوين الثاني في سبتمبر سنة (٥٢٥هـ/١١٣١م)، فهي فعلياً شريكة في حكم المملكة منذ عشرين عاماً تقريباً. ولا يهمنا الدوافع التي أدت إلى تفجير الخلاف بين بلدوين وأمه، ولكن يهمنا التأكيد أن بلدوين عزم على تجريد والدته من كل صلاحياتها في إدارة المملكة التي اعتمدت بشكل رئيسي على قريبها مانسيس "Manasses of Herges" الذي عينته "كنداصطبل" – أي قائد فرسان _ المملكة. ويذكر وليم الصوري أن بعض مستشاري بلدوين نصحوه بما يلي: "قالوا له إنه ليس من الملائم أن تتحكم فيه امرأة وتسيِّره بحسب هواها، وأن الواجب يقتضي أن يأخذ شيئاً من تبعات الحكم" (٧٤).

ويبدو أن بلدوين لا يحتاج نصيحة هؤلاء فقد كان عازماً أن يجرد أمه من كل صلاحية في إدارة المملكة، ولكنه بدأ بخطوات تدريجية، كانت الخطوة الأولى بتتويج نفسه ملكاً متجنباً حضور أمه مراسيم التتويج، وعلى الرغم من نصيحة بطريرك بيت المقدس لبلدوين بعدم الإقدام على تلك الخطوة الجريئة إلا أنه أصر على ذلك وتوج نفسه دون حضورها، ثم طلب بلدوين من أمه أن تتقاسم معه المملكة، وطال الجدال حول ذلك الموضوع، وانتهى بإعطاء بلدوين المدن الساحلية من عكا حتى صور بكل ملحقاتها، وتسلمت ميلِزاند القدس ونابلس وغيرهما من المدن الملحقة بهما. وخطوة التقسيم تلك خطوة غير مسبوقة في تاريخ مملكة بيت المقدس، ولكنها تدل على صعوبة حل ذلك الإشكال الكبير في تلك المرحلة، وذلك لإصرار ميلِزاند على كونها ليست فقط وصية بل هي شريكة في حكم المملكة وتملك حقاً شرعياً منذ أيام والدها الذي قام – قبيل وفاته سنة (٥٢٥هـ/١١٣١م) – بمراسم التتويج لها ولزوجها فولك وابنها بلدوين عندما كان يبلغ آنذاك سنة واحدة فقط، كما أسلفنا[٧٥].

إلا أن رغبة بلدوين بالانفراد في حكم المملكة لم تخمد إلى حد معين، فأخذ يستغل أية فرصة ليستحوذ على أملاك والدته، ويضم المملكة كلها تحت سلطته، فقام أولاً بإخضاع "مانسيس" الكنداصطبل لجيش والدته الذي تحصن في قلعة تعرف باسم "ميرابل"، ثم بدأ يكسب ود أتباع والدته بطرقه الخاصة، فلم يبق على الوفاء لها إلا ولدها "عموري" – كونت يافا – وكان شاباً صغيراً و"فيليب" النابلسي و"روهارد" الكبير. ثم زحف بلدوين بقواته، وحاصر أمه في مدينة بيت المقدس، ففتح المدافعون البوابات له حقناً للدماء، فدخل وحاصر أمه وقواتها في قلعة بيت المقدس، وأخذ يصب جام غضبه ونيران المنجنيقات والسهام على قوات والدته التي تحصنت في القلعة، واستمر القصف عدة أيام فاضطرت ميلِزاند – بعد توسط الوسطاء – أن تكتفي فقط بحكم نابلس وما

حولها والتخلي عن مدينة بيت المقدس عاصمة المملكة. فانتهت بذلك أول حكومة نسائية في الكيان الصليبي وستتلوها بقية الحكومات النسائية[٧٦]. ويبدو أن سقوط حكومة ميلِزاند تلك بذلك العنف والشدة قد فلّ في عضد حكومة "كونستانس" في أنطاكية التي ورثت حب السلطة من والدتها "أليس" التي كانت المبادِرة في التسلط وحب التفرد بالحكم منذ مقتل زوجها بوهيموند الثاني في (٥٢٤هـ/ فبراير ١١٣٠م).

بعد أن فرغ بلدوين الثالث من كسر شوكة والدته ميلِزاند اتجه نحو معالجة وضع كونتية الرُّها ومسألة وصاية "بياتريس" Beatrice على ابنها جوسلين الثالث بطريقة غريبة لم يسبق لها مثيل. ففي تلك المرحلة تعرض ما تبقى من كونتية الرُّها لتهديدات قوى مسلمة مختلفة سواء من نورالدين محمود – صاحب حلب – أو سلطان قونية "مسعود الثاني" و"تِمُرْتاش الأرتقي" صاحب ماردين، وقدم في تلك الأثناء الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين عرضاً لشراء ما تبقى من الكونتية، فاستشارت الكونتيسة "بياتريس" الملك بلدوين الثالث – لكونه سيدها الإقطاعي – فما كان منه إلا أن وافق بسرعة بل قام هو شخصياً بتسليم ما تبقى من الكونتية للبيزنطيين في سنة (٥٤٦هـ/ ١١٥١م)، فبينما كان جده – من أمه – بلدوين الثاني حريصاً على حماية الإمارات الصليبية نرى حفيده بلدوين الثالث يقوم بكل جرأة بالموافقة على بيع ما تبقى من كونتية الرُّها التي سقطت عاصمتها في (جمادى الآخرة ٥٣٩هـ/ ٢٣ ديسمبر ١١٤٤م)، كما لم تقدم والدته – عندما كانت بالسلطة – أية مساعدة لإعادتها، بل عندما جاءت الحملة الصليبية الثانية سنة (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) أرادت استغلالها لمصلحتها الشخصية في الاستيلاء على دمشق وليس لإعادة الرُّها. وهكذا شهد عهدا ميلِزاند وبلدوين الثالث نهاية تلك الكونتية وذلك سنة (٥٤٦هـ/ ١١٥١م) بعد سبع سنوات من سقوط عاصمتها بيد زنكي سنة (٥٣٩هـ/ ١١٤٤م). ولا يهمنا كيف آل ما تبقى من الكونتية إلى تقاسم قوى

مسلمة لها ولكن يهمنا ما يتصل بموضوع بحثنا وهو أن بلدوين الثالث عالج استبداد الكونتيسة "بياتريس" في حكم الرُّها معالجة غريبة حيث أفقدها سلطتها وكيان الكونتية معاً[٧٧].

ثم قام بلدوين في العام التالي – أي سنة (٥٤٧هـ/١١٥٢م) – بخطوة نحو إلغاء وصاية كونستانس على ابنها بوهيموند الثالث بن ريمون دي بواتيه. ويبدو أن بلدوين الثالث هداه تفكيره أن يدعو كونستانس لحفلة عائلية تعقدها خالته "هوديرنا" – زوجة ريمون الثاني كونت طرابلس – في مدينة طرابلس، وتحضرها أمه ميلِزاند خالة كونستانس، وبقية العائلة، حيث عرض بلدوين الثالث على "كونستانس" في تلك الحفلة ثلاثة قادة رشحهم لأن يكون أحدهم زوجاً لها ويتولى الوصاية على بوهيموند الثالث. ولم يذكر وليم الصوري تفاصيل الحفلة، ولكن يبدو أنها كانت حفلة مثيرة حيث عُرض هؤلاء الزعماء العظام في مشهد أشبه ما يكون باستعراض، ظهرت فيه ميلِزاند تحث ابنة أختها "كونستانس" على الزواج بأحد هؤلاء القادة، ولكنها يبدو أنها كانت تحرضها سراً بعدم القبول بهم جميعاً، وهكذا انتهت تلك الحفلة الغريبة نهاية مخفقة توضح مدى سذاجة بلدوين الثالث في معالجة أمر تسلط "كونستانس"، وستثبت الأحداث أن "كونستانس" كانت تفضل البقاء أرملة، وتسيير أمر أنطاكية كما يحلو لها دون تسلط زوج، وعموماً عندما ستُجبر على الزواج ستختار ما يناسبها ليكون ألعوبة وهو ما سيحدث فعلاً بعد سنة في (٥٤٨هـ/ابريل ١١٥٣م) حيث سيعقد قرانها سراً على رينو دي شاتيون (أرناط عند العرب) بينما الصليبيون يحاصرون عسقلان حصاراً شديداً بقيادة بلدوين الثالث[٧٨].

الثاني عشر – "هوديرنا" تدخل سباق المنافسة متأخرة

ونشب بعد حادثة الحفلة نزاع شديد بين ريمون الثاني – كونت طرابلس – وزوجته "هوديرنا" ابنة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس الأسبق، ولا يذكر وليم الصوري طبيعة ذلك الخلاف ولا صلته بالحفلة. وما يهمنا هو أن ذلك الخلاف كان كبيراً استدعى تدخل "ميلِزاند" أخت "هوديرنا"، حتى أن "ميلِزاند" ذهبت إلى أختها لحل الخلاف ولكنها لم تنجح، ولذلك طلبت "هوديرنا" أن ترافق "ميلِزاند" في إقطاعها في "نابلس". ويبدو أن ريمون الثاني كان في وضع ضعيف، ولذلك وافق أن تغادر زوجته مع أختها حتى أنه خرج لوداعهما خارج مدينة طرابلس، ثم عاد دون حراسة ليدخل المدينة فقتله أناس زعم الصليبيون بأنهم من الحشيشية. ويبدو أن مقتل ريمون الثاني جاء بترتيب محكم من "ميلِزاند" و"هوديرنا" التي ربما كانت تتطلع لتجربة الاستبداد بالسلطة كما جربتها أختاها من قبل "أليس" و"ميلِزاند". وقد خلف ريمون الثاني ابناً يدعى كذلك "ريمون الثالث" يبلغ إحدى عشرة سنة فقامت أمه بالوصاية عليه. ويبدو أن بلدوين الثالث كان موقناً آنذاك أنه لا يستطيع بنفسه إدارة كونتية طرابلس، ولذلك لم يحاول تلك المرة أن يتسلط على خالته "هوديرنا"، وبذلك سنحت فرصة جديدة – ولكنها متأخرة – للنساء للتسلط وحكم كونتية طرابلس. ويبدو أنه بعد كسر جناح ميلِزاند – قبل حوالي سنتين – لم يعد تسلط النساء هو الشغل الشاغل في الكيان الصليبي، بل إن رغبة النساء ضعفت في التسلط فلم يحصل بين "هوديرنا" وابنها ريمون الثالث ما حصل بين ميلِزاند وابنها بلدوين الثالث من نزاع(٧٩).

الثالث عشر – زواج "كونستانس"
وصراع القوى ونهاية حكومات النساء

وتعرضت مدينة بيت المقدس آنذاك لحملة عسكرية قادها الأراتقة الذين كانوا يحكمون بيت المقدس قبل أكثر من ستين عاماً، ولم يفقدوا سلطتهم إلا بعد أن استولى عليها الفاطميون سنة (٤٩١هـ/١٠٩٨م) في الوقت الذي كان فيه صليبيو الحملة الأولى يحاصرون مدينة أنطاكية. وعموماً كانت حملة الأراتقة كبيرة، ولكنها منيت بكارثة أكبر قرب بيت المقدس في (٥٤٧هـ/٢٣ نوفمبر ١١٥٢م). ويزعم وليم الصوري أن ذلك النصر الكبير على الأراتقة شجع الصليبيين على الاستيلاء على عسقلان، وهو آخر معقل ساحلي مازال بيد الفاطميين. ولكن يبدو أن بلدوين الثالث الذي ساهم في ضياع "الرُّها" ولم يحقق نجاحات تذكر في مواجهة أكبر تهديد للكيان الصليبي آنذاك المتمثل في نورالدين محمود صاحب حلب، يريد الآن أن يحقق ما عجز عنه أجداده طوال السنوات الأربع والخمسين الماضية. ولذلك حشد بلدوين الثالث جميع قوات الكيان الصليبي في تلك المحاولة بما فيهم قوات رهبانيتي الاسبتارية والداوية "فرسان المعبد". ويفصل وليم الصوري في ذلك الموضوع الذي يأخذ منه خمساً وعشرين صفحة، ويوضح مدى شدة الحصار على المدينة من البحر والبر، ومدى شدة مقاومة المدافعين عن عسقلان الخاضعين للدولة الفاطمية. ويذكر في ثنايا ذلك الموضوع خبر زواج "كونستانس" آنذاك برينو دي شاتيون "Renaud de Chatilon" – الذي عُرف عند المؤرخين المسلمين بأرناط – بينما كان الصليبيون يعانون من شدة مقاومة المدافعين. ويذكر وليم أن "رينو" أخذ الموافقة من بلدوين الثالث، ثم ذهب لعقد قرانه على كونستانس سراً، ولم يفش الخبر؛ وذلك لأن الوضع كان غير طبيعي حيث كان الصليبيون آنذاك يعانون من القتال ومقاومة المدافعين عن عسقلان،

بينما رينو دي شاتيون يحتفل بزفافه. وعموماً استسلم أهل عسقلان بعدما فقدوا الأمل، وذلك في (جمادى الأولى ٥٤٨هـ/١٢ أغسطس ١١٥٣م) بعد حصار امتد حوالي ثمانية أشهر[٨٠].

ووفقاً لرأي المؤرخ ابن الأثير فإن استيلاء الصليبيين على عسقلان سيحث نورالدين محمود – صاحب حلب – على الاستيلاء على دمشق بعد سبعة أشهر فقط. وهكذا خطا نور الدين خطوة جادة نحو توحيد الجبهة الإسلامية بدخول إمارة دمشق – التي كانت مسالمة، وربما حليفة للصليبيين لمدة طويلة – تحت سلطته. والآن بعد يأس أهل دمشق من حاكمهم مجيرالدين أبَق الذي استبد في حكم إمارة دمشق بعد وفاة أتابكه أنَر سنة (٥٤٤هـ/١١٤٩م)، نراهم يفضلون الخضوع لقائد مجاهد كنورالدين على أن يخضعوا لأبَق حليف الصليبيين، وهكذا عجل ضم الصليبيين لعسقلان في توحيد الجبهة الإسلامية[٨١].

ويستغرب وليم الصوري من قبول "كونستانس" التي كانت متزوجة سابقاً من "رجل – أي ريمون دي بواتيه – تسنم ذروة الشهرة – كيف تنزل من عليائها وتنحدر فتتزوج من فارس من حثالة الفرسان كأرناط آرينو دي شاتيون". وسوف تثبت الأيام أن تعمد "كونستانس" الزواج من ذلك الإنسان سيجر لها ولإمارتها بل وحتى الكيان الصليبي الدمار خاصة إذا علمنا أن ذلك القائد كان شغله الشاغل السلب والنهب، ولم يكتف بسلب المسلمين بل حتى النصارى المقيمين في أمان الكيان الصليبي، ووصل الأمر به أن غزا جزيرة قبرص – التابعة للإمبراطورية البيزنطية – وسلبها في حوالي (٥٥١هـ/ ١١٥٦م)، فعاث دماراً في الجزيرة، وانتهك أعراض النساء حتى الراهبات منهن، ثم عاد إلى أنطاكية بالأسلاب فرحاً بها. فإذا كانت "كونستانس" تفكر في مصلحتها فإنه كان الأولى بها أن تتزوج رجلاً شجاعاً أميناً وفياً حتى لا يُدخل إمارة أنطاكية في مشاكل جديدة هي في غنى عنها. وهكذا كان

اختيارها ذلك سبباً في كسب عداوة الإمبراطور البيزنطي "مانويل كومنين" الذي اشتُهِرَ بتعاونه ووده للصليبيين حتى إنه سيختار زوجة صليبية – بعد وفاة زوجته – إظهاراً لوده وتحالفه معهم، وهو ما سيحدث بعد أسر "رينو دي شاتيون" سنة (٥٥٦هـ/ ١١٦٠م)[٨٢].

وبينما الكيان الصليبي يسير نحو الضعف بتزايد العداوة بين الإمبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية خاصة بعد قيام رينو دي شاتيون بعدوانه على قبرص التي سبق الحديث عنها، نرى الملك العادل نورالدين سنة (٥٥١هـ/١١٥٦م) يخطو خطوات نحو تحقيق الوحدة الإسلامية بعد ضم دمشق لدولته، حيث اصطلح آنذاك مع سلطان سلاجقة الروم قلج أرسلان الثاني، وكذلك ألب أرسلان بن السلطان مسعود الذي كان والده زنكي أتابكاً له، ولا يخبرنا ابن القلانسي عن أسباب الخلاف بين نورالدين وألب أرسلان.

وفي العام نفسه تصالح نورالدين مع ملك بيت المقدس بلدوين الثالث حيث دفع لملك بيت المقدس مالاً سماه ابن القلانسي مقاطعة قدرها بثمانية آلاف دينار صورية، ولا يستبعد أن الزلازل الشديدة التي أصابت مملكة نورالدين آنذاك اضطرته لطلب الصلح مع بلدوين الثالث لمدة سنة فقط حيث استأنف في العام التالي وهو عام (٥٥٢هـ/١١٥٧م) عملياته ضد مملكة بيت المقدس[٨٣].

وبدأ تهديد نورالدين عام (٥٥٢هـ/١١٥٧م) يتزايد على الكيان الصليبي خاصة مملكة بيت المقدس وإمارة أنطاكية، فقام بتهديد "بانياس" حيث انتهى بلدوين الثالث آنذاك من بناء حصن جديد قرب بانياس، فعندما كانت قوات بلدوين عائدة إلى بيت المقدس – دون أخذ الحيطة – باغتتها قوات نورالدين وشتتها، فارتد بلدوين مسرعاً إلى ذلك الحصن الجديد للتحصن به، ثم جاءت قوات لنجدة بلدوين فباغتتها كذلك قوات أرسلها نورالدين وهزمتها. وسقط في كلا الهجومين أسرى من كبار القادة الصليبيين بمن فيهم رئيس فرسان

المعبد وهو بيرتراند صاحب "بلانكفورت" "Bertrand de Blanquefort". بل وصلت شائعات إلى بيت المقدس تفيد مقتل بلدوين نفسه، وعموماً جاءت قوات أنطاكية بقيادة "أرناط" وقوات طرابلس بقيادة ريمون الثالث لنجدة الملك، وحرر نورالدين "بانياس" وتوالت انتصاراته على الصليبيين كما يقول وليم الصوري(٨٤).

شهدت مملكة بيت المقدس في عام (٥٥٤هـ/١١٥٩م) حدثاً مهماً، وهو زواج الملك بلدوين الثالث الذي بلغ آنذاك حوالي ثلاثين عاماً. فقد أمضى بلدوين الثالث زمناً طويلاً يلهو بالتعدي على أعراض نساء قواد مملكته. والغريب أن بلدوين أقبل على الزواج بناء على إلحاح من قادته الذين خافوا أن يموت دون وريث. ويقر وليم الصوري بسوء خلقه سابقاً فيقول: "على أن الملك نبذ – منذ زواجه – ظهرياً جميع ما كان يتسم به من رعونة طائشة لم يكن يتورع عن الظهور بها من قبل"(٨٥).

وقد تم عقد قرانه على ابنة أخ الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين المدعو إسحاق. ويؤكد وليم الصوري أن مملكة بيت المقدس كانت في أشد الحاجة لإسعافها مالياً. ويبدو أن المفاوضات في شأن ذلك الزواج قد استغرقت – على أقل تقدير – عاماً. ويبدو أن بلدوين الثالث بدأ ينضبط أخلاقياً بعد زواجه حتى إن وليم يقول: "فتخلى عن كل ما يشينه، وصار رجلاً غير الذي كان من قبل، وتفرغ للأعمال المجيدة، وشغل نفسه بالأمور الجدية"(٨٦). ومما يلفت النظر هو عدم تفكير بلدوين بأمر زواجه طوال تلك المدة، فبينما هو يحث "كونستانس" على الزواج بعد مقتل زوجها ريمون دي بواتيه في سنة (٥٤٤هـ/١١٤٩م) في معركة إنّب التي سبق الحديث عنها نراه يتزوج في سن متقدمة.

وفي العام نفسه الذي تزوج فيه بلدوين أصاب والدته الملكة ميلِزاند مرض

شديد حيث كانت تنتابها نوبات ذهول وفقدان الذاكرة، وظلت طريحة الفراش حتى وفاتها في (٥٥٦هـ/سبتمبر ١١٦١م)[٨٧]. وهكذا أقعد المرض العضال المرأة الحديدية التي كانت متفوقة على الرجال كما يصفها وليم الصوري.

وقام الإمبراطور مانويل في سنة (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) بإخضاع إقليم قليقية لسيادة الإمبراطورية وهو الإقليم الذي انتزعته إمارة أنطاكية من البيزنطيين، فاضطُر رينو دي شاتيون – أمير أنطاكية – أن يذهب إلى مانويل في قليقية بكل ذلة ومهانة، وقدم الاعتذار عن أعماله العدوانية ضد الإمبراطور خاصة نهبه جزيرة قبرص، كما قدم يمين الولاء والطاعة للإمبراطور البيزنطي. ويصف وليم حالة "أرناط" المهينة بما يلي: "وقدم وعليه قميص خشن من الصوف قصير الأكمام يصل إلى مرفقيه، وجعل حول عنقه حبلاً، وأمسك بيده ذباب سيفه الذي استلّه من غمده، وقدمه إلى الإمبراطور مانويل، ثم طرح نفسه أرضاً عند موطئ قدميه معفراً وجهه في التراب، فاشمأز الجميع مما فعل، وكسف مجد اللاّتين الذي استحال بفعلته تلك معرّة ونقيصة"[٨٨].

وعلى النقيض من ذلك أكرم الإمبراطور مانويل الملك بلدوين الثالث الذي قدم إلى بلاطه في إقليقية فأحسن الإمبراطور استقباله وحاشيته، ويشبه وليم تلك المعاملة بمعاملة الوالد لابنه، حتى إن بلدوين الثالث استغل ذلك اللقاء للإصلاح بين الإمبراطور و"طوروس" الأرمني الذي كان آنذاك يسعى للاستقلال بإقليم قليقية تحت سلطته. ويفصِّل وليم الحديث في عظم العطايا التي قدمها الإمبراطور لبلدوين وحاشيته. ثم دخل الإمبراطور وقواته مدينة أنطاكية في احتفال كبير للبيزنطيين ومهين للصليبيين، فلم يسبق أن دخل تلك المدينة أحد الأباطرة البيزنطيين منذ استيلاء الصليبيين عليها سنة (٤٩١هـ/ ١٠٩٨م) وحضر الحفل أرناط أمير أنطاكية وبلدوين الثالث ووجهاء مملكة بيت المقدس وأنطاكية[٨٩]. وبذلك ذلَّت أنطاكية والصليبيون بصورة لم يسبق

لها مثيل للبيزنطيين في ظل سوء حكم "أرناط" الذي هو نتاج اختيار "كونستانس" الأنانية التي اقترنت بزوج ظنته مطية فإذا به صفيق وأحمق.

وفي الوقت الذي ذلَّ فيه أرناط لمانويل قام مانويل بعقد سلام مع الملك العادل نورالدين محمود بعد أن تأكد له عدم الفائدة من معاداة الدولة النورية. وبعد أشهر قليلة قام "أرناط" بمهاجمة وسلب قطعان الأغنام التي يمتلكها النصارى في منطقة بين مرعش ودلوك، ثم قفل راجعاً بأسلابه فإذا مجد الدين بن الداية – والي حلب – من قبل نور الدين يباغته ويأسره، وكان ذلك في الثالث والعشرين من شهر نوفمبر من عام (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م). وخاف أهالي أنطاكية أن تقع مدينتهم بيد نورالدين، ومع ذلك نرى بلدوين الثالث لم يكن متحمساً تلك المرة لإنقاذهم إلا بعد أن زاد توسلهم وتضرعهم له، فذهب إلى أنطاكية وأوكل أمرها إلى بطريرك أنطاكية وكونتسانس بوصفها وصية على ابنها القاصر بوهيموند الثالث بن ريمون دي بواتيه، ولم يشغل بلدوين نفسه كثيراً في أمر أنطاكية التي تزوجت أميرتها بأرناط الذي جرَّ الذلّ والهوان للكيان الصليبي خاصة بعد أن أثار عداوة الإمبراطور البيزنطي كما أسلفنا(٩٠).

وقدم في عام (٥٥٦هـ/ ١١٦١م) سفيران من قبل الإمبراطور البيزنطي مانويل يحملان رسالة لبلدوين الثالث يعرض عليه اختيار زوجة جديدة من الأميرات الصليبيات للإمبراطور بدلاً من زوجته التي توفيت. وكانت فرصة سانحة ربما لم يتوقعها بلدوين، فاقترح بلدوين تزويجه بميلِزاند ابنة ريمون الثاني – كونت طرابلس السالف – وأخت ريمون الثالث. ويبدو أن الإمبراطور أعطى موافقة أولية، ثم أخذ يماطل في الرد النهائي حتى جاء الرد بتغيير رأيه بعد سنة من المماطلة، والطريف أن الأميرة "ميلِزاند" صُرفت عليها أموال طائلة من أخيها لتجهيزها، وكان ذلك الأمر صدمة كبيرة لبلدوين، وكذلك ريمون الثالث الذي قرر الثأر لتلك الإهانة الكبيرة(٩١).

ثم زحف بلدوين بقواته نحو أنطاكية لترتيب أمورها فإذا به يرى السفيرين نفسيهما اللذين قابلاه من قبل – واللذين فرا قبل وصول رد الإمبراطور بالرفض – موجودين في أنطاكية يخطبان ابنة كونتسانس الصغرى المدعوة "مارية" من زوجها الأول ريمون دي بواتيه، وهنا يصف وليم الصوري حالة بلدوين فيقول: "أحس بجرح عميق في نفسه، وإهانة بالغة لشخصه من جراء تلك المسألة، التي رأى الصواب فيها أن يرفض أن يكون طرفاً مع الإمبراطور في موضوع الزواج، غير أن عطفه على قريبته اليتيمة حمله على التفكير في الأمر طويلاً، وانتهى تفكيره إلى أن يكون هو كفيلها فوافق على عقد الزواج"[٩٢]. ويبدو أن بلدوين رأى أنه من الحكمة أن لا يدخل مع مانويل في خلاف خاصة أن مانويل اعتاد إظهار وده للصليبيين، ولكن مانويل – تلك المرة – ماطل في الرد على قبول ميلِزاند لأسباب متعلقة بمدى جمال "مارية" التي ربما تفوقت على ميلِزاند بجمالها. وبينما كان بلدوين في أنطاكية جاءه نعي والدته ميلِزاند التي توفيت في (٥٥٦هـ/١١ سبتمبر ١١٦١م). وقد عانت من مرضها لما يزيد عن عامين. وأظهر بلدوين مدى لوعته بوفاة أمه، ويصف وليم مدى تأثر بلدوين فيقول: "فشق عليه موتها... وظل عدة أيام بعد رحيلها تتساقط نفسه حسرة، وجزع جزعاً شديداً لم يستطع أحد إزاءه الاقتراب منه لتقديم العزاء له"[٩٣]. ويبدو أن ذلك أحدث عنده ندماً شديداً على ما اقترفه في حقها عندما حاصرها في قلعة بيت المقدس، وأرسل جام غضبه ومنجنيقاته عليها قبل عشر سنوات. وبذلك انتهت حياة امرأة جريئة تحكمت في مملكة بيت المقدس عشرين عاماً جَرَّت فيها على المملكة والإمارات الصليبية المصائب أكثر من المكاسب.

وبعد خمسة أشهر لحق بلدوين بوالدته حيث أخذ بلدوين الثالث دواء "مسهلاً" كما جرت عادته، ويبدو أنه أخذ كمية كبيرة فمات بسببها، إلا أن وليم ينقل إشاعة أو تهمة تقول: إن ذلك الدواء لم يكن سوى سماً، ويزعم أن

الدواء نفسه جُرّب في طرابلس فأعطي لكلب فمات بعد بضعة أيام. وبموت ميلِزاند ثم بلدوين الثالث في (٥٥٨هـ/١٣ فبراير ١١٦٢م) انتهت حقبة في تاريخ الحروب الصليبية تميزت بتسلط النساء في حكم الكيان الصليبي بدأت بأليس في أنطاكية سنة (٥٢٤هـ/١١٣٠م)، ثم ميلِزاند في مملكة بيت المقدس في سنة (٥٢٥هـ/١١٣١م) وأخيراً "هوديرنا" في طرابلس سنة (٥٤٧هـ/١١٥٢م)[٩٤].

ولم تكن مصادفة أن تتسلط بنات بلدوين الثاني من أم أرمنية تدعى "مورفيا" ابنة جبريل حاكم ملطية على الكيان الصليبي. ويبدو أن الأرمن ضاعَ كيانهم وكذلك نفوذهم وربما كرامتهم بالمشروع الصليبي فأرادوا الثأر من الصليبيين بطريقتهم الخاصة وهي تسلط بناتهم على ذلك الكيان الصليبي وإضعافه من الداخل، وهو ما تحقق فعلاً خلال أكثر من ثلاثين عاماً التي فصلنا الحديث فيها.

الخاتمة

ربما كان من أهم دوافع البابوية سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م) من تبنيها للمشروع الصليبي هو بسط سيادتها السياسية على ملوك أوروبا الغربية، ولذلك نرى أن البابا إربان الثاني دعا فقط السادة الإقطاعيين وليس أسيادهم ملوك أوروبا للمشاركة في الحملة الصليبية الأولى التي انطلقت سنة (٤٨٩هـ/١٠٩٦م) متجهة إلى الشرق الإسلامي. إن نجاح الحملة الصليبية الأولى في إقامة دول صليبية خاضعة للبابوية ويسيّرها قادة إقطاعيون علمانيون قد أوقع البابوية في معضلة إدارة هذه الدول بقوة مركزية، فالبابوية كسلطة دينية لم يسبق لها أن قامت بحكم دول علمانية بل كانت تدير فقط دولة البابوية التي عاصمتها روما. فقد استفاد الإقطاعيون العلمانيون من المشروع الصليبي – الذي تبنته البابوية – في إقامة دول خاصة بهم يحكمونها وراثياً في أسرهم. وعندما تولى جودفري حكم بيت المقدس سنة (٤٩٢هـ/١٠٩٩م) كانت سيادته على بيت المقدس ضعيفة أمام سلطة البابوية الممثلة ببطريرك بيت المقدس الذي اضطر جودفري على قبول تنازل ورثته عن حكم بيت المقدس في حالة وفاته دون ولد يخلفه، وعندما توفي جودفري (٤٩٣هـ/يوليو ١١٠٠م) خلفه أخوه بلدوين البويوني – كونت الرُّها – ونصب نفسه أول ملك لمملكة بيت المقدس، وتوج بيد بطريرك بيت المقدس نفسه الذي سبق أن ابتز أخاه جودفري. وقام بلدوين بتوطيد حكمه وتوسيع المملكة التي كانت صغيرة وضعيفة جداً خلال مدة حكمه التي امتدت حتى سنة (٥١٢هـ/١١١٨م). ولم يحاول بلدوين خلال حكمه أن يفرض سلطته الفعلية على بقية الدول الصليبية، ولكن عندما تولى قريبه بلدوين البورجي مملكة بيت المقدس بعد وفاة بلدوين البويوني قام بخطوات

عملية لفرض سيادته على الكيانات الصليبية، وذلك عن طريق الزواج السياسي حيث زوج أخته بأمير أنطاكية روجر كما زوج بناته من الأمراء الصليبيين، ففي سنة (٥٢٠هـ/١١٢٦م) زوج ابنته "أليس" بأمير أنطاكية بوهيموند الثاني في صفقة سياسية كما أوضحت ذلك في البحث، كما زوج ابنته "هوديرنا" بكونت طرابلس ريمون الثاني سنة (٥٣١هـ/١١٣٧م). ونظراً لعدم انجابه ولداً فإنه زوج ابنته الكبرى "ميليزاند" سنة (٥٢٣هـ/١١٢٩م) بفولك كونت آنجو الذي أخذ عليه العهد – بعد سنتين – أن يكون شريكاً لميليزاند وابنيهما الطفل بلدوين الثالث بحيث لا ينفرد فولك في حكم المملكة بعد وفاة عمه بلدوين البورجي وهو ما حدث سنة (٥٢٥هـ/١١٣١م). إن هذا التعهد من قبل فولك ومبايعة وجهاء مملكة بيت المقدس لميليزاند وفولك والطفل بلدوين الثالث سيفتح الباب للمرأة الصليبية في الاستبداد في حكم الكيانات الصليبية. والغريب في الأمر أن الشرارة الأولى لاستبداد النساء الصليبيات انطلقت من أنطاكية وتزعمتها "أليس" بعد مقتل زوجها بوهيموند الثاني سنة (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م) حيث قامت بالاستقلال في حكم أنطاكية ورفضت الخضوع لأبيها، ولكنه قام بإخضاعها بالقوة وفرض سلطته على أنطاكية من جديد، إلا أن وفاة بلدوين البورجي سنة (٥٢٥هـ/١١٣١م) بعد سنة واحدة من ثورة ابنته "أليس" وتولي فولك الضعيف مملكة بيت المقدس شريكاً لزوجته ميليزاند وابنه بلدوين الثالث قد فتح شهية "أليس" للثورة والعصيان على الملك الضعيف، فشكلت "أليس" تحالفاً بين إمارتها "أنطاكية" مع بونز بن برتراند – كونت طرابلس – ، وجوسلين الأول كورتناي كونت الرُّها، وكاد ذلك التحالف أن يقضي نهائياً على سيادة مملكة بيت المقدس على الدول الصليبية الأخرى الثلاث. إلا أن فولك تمكن من تفكيك هذا التحالف، وكبل سلطة "أليس" عندما زوج في سنة (٥٣٠هـ/١١٣٦م) ابنتها الطفلة "كونستاس" –

الوريثة الشرعية في حكم أنطاكية لأبيها بوهيموند الثاني - بريمون دي بواتيه، وهو قائد قوي استبد في حكم أنطاكية - الذي حكم أنطاكية تحت سلطة فعلية للملك فولك، ولقي ريمون حتفه سنة (٥٤٤هـ/١١٤٩م)، فاستبدت أرملته كونستانس في حكم أنطاكية لمدة خمس سنوات حتى تزوجت من جديد برينو دي شاتيون الذي عُرف بطيشه فأدى إلى تأجيج الصراع بين الصليبيين والبيزنطيين، ومنذ تزويج كونستانس بريمون انتهى استبداد "أليس" في حكم أنطاكية، وبذلك أخفقت أول تجربة نسائية - فريدة وغير ناضجة - للاستبداد في السلطة السياسية في الكيان الصليبي، وفي الوقت الذي تحكمت امرأة صليبية في الشرق في الحكم كأليس في أنطاكية، كانت المرأة اللاتينية في أوروبا الغربية بعيدة عن التدخل في أمور الحكم والسياسة، فضلاً عن الاستبداد في الحكم، ولا يستبعد أن "أليس" وأخواتها وخاصة ميليزاند قد عُلمن - من قبل جدهن جبريل الأرمني "صاحب ملطية" وابنته مورفيا - حب الاستبداد في السلطة بهدف إضعاف الكيان الصليبي الذي قام باستغلال الأرمن استغلالاً سيئاً خلال مرحلة الحروب الصليبية، فقد تحالف الأرمن مع الصليبيين ضد المسلمين ظناً منهم أن الصليبيين جاءوا منقذين لهم من المسلمين وحتى البيزنطيين، وكان ثمرة ذلك التحالف إقامة كونتية الرُّها الصليبية في أراض أرمنية خاضعة سياسياً للبيزنطيين، إلا أن آمال الأرمن قد تحطمت على صخرة نكران الجميل من قبل الصليبيين.

لقد أثبتت ميليزاند أنها لا تقل سطوةً ودهاءً عن أختها "أليس"، حيث نجحت في التحكم في زوجها فولك سنة (٥٢٩هـ/١١٣٥م) الذي أراد أن ينفرد في حكم المملكة خاصة بعد أن أُتهمت ميليزاند - من قبل أنصار الملك فولك - بالخيانة الزوجية، كما استمرت ميليزاند في الاستبداد بالسلطة بصورة أكبر بعد وفاة زوجها فولك سنة (٥٣٦هـ/١١٤٢م) حيث صارت وصية على ابنها بلدوين

الثالث الذي كان يبلغ من العمر آنذاك حوالي ثلاثة عشر عاماً، وتمسكت "أليس" بكونها شريكة لابنها بلدوين الثالث في حكم المملكة نظراً لتتويجها ملكة منذ حياة والدها سنة (٥٢٥هـ/١١٣١م) مع زوجها فولك، ويبدو أن ميليزاند قد ألهت ابنها المراهق بالنساء وشهواته كي تستأثر هي وحدها في الحكم حتى لو بلغ ابنها السن القانوني وهو واحد وعشرون عاماً. إلا أن بلدوين الثالث – وبمساندة أنصاره الرافضين لاستبداد والدته في حكم المملكة – تمكن سنة (٥٤٦هـ/ ١١٥١م) أن ينتزع السلطة من أمه وأنصارها، وينفرد في حكم المملكة بصورة متدرجة وقاسية في حق أمه حتى أنه استخدم معها القوة المفرطة لإجبارها على التنازل عن السلطة. وفي الوقت الذي كان الكيان الصليبي منشغلاً في صراعاته الداخلية ومحاولات النساء الصليبيات التسلط على الدول الصليبية كان الشرق الإسلامي قد بدأ يخطو خطوات عملية نحو توحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة الكيان الصليبي، فكانت محاولات عماد الدين زنكي – أتابك الموصل وحلب – فيما بين سنتي (صفر ٥٢٠هـ/١١٢٦م) و(ربيع آخر ٥٤١هـ/ ١١٤٦م) في إقامة جبهة إسلامية موحدة لمواجهة الكيان الصليبي، ثم محاولات خليفته وابنه نور الدين محمود (٥٤١هـ/١١٤٦م) (شوال ٥٦٩هـ/١١٧٤م) في ضم دمشق سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م) ثم مصر الفاطمية إلى دولته سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م) ويبدو أن الشرق الإسلامي استغل ضعف الدول الصليبية في تلك المرحلة الزمنية لإقامة جبهة إسلامية موحدة، والتي ستبلغ القمة في انتصار حطين سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م).

قائمة الهوامش

(١) وليم الصوري، **الأعمال المنجزة فيما وراء البحار**، الجزء الأول، ترجمه إلى العربية حسن حبشي تحت عنوان: "الحروب الصليبية" (١٠٩٤ – ١١٨٤م)، القاهرة، نشرته الهيئة المصرية للكتاب، ضمن سلسلة تاريخ المصريين، سنة ١٩٩١م، رقم العدد ٤٥. ج١ ص٢٣٤ – ٢٣٥.

(٢) فوشيه الشارتري، **تاريخ الحملة إلى بيت المقدس**، ترجمه قاسم عبده قاسم تحت عنوان: **الوجود الصليبي في الشرق العربي**، ط١، الكويت، دار ذات السلاسل، ١٩٩٣م، ص٢٠٩؛ وليم الصوري، ج٢، ص٢١٣، ٢٣١، ٢٤٥؛ انظر كذلك محمود سعيد عمران، **تاريخ الحروب الصليبية (١٠٩٥م – ١٢٩١م)** الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥م، ص٢٦.

(٣) وليم الصوري، ج٢، ص١١٣، ١٢٠ – ١٢١.

(٤) المصدر السابق، ج٢، ص١٨ – ١٩.

(٥) المصدر السابق، ج١، ص٢٩١ – ٢٩٣.

(٦) المصدر السابق، ج١، ص٢٢٦ – ٢٢٩.

(٧) وليم الصوري، ج١، ص٢٣٥ – ٢٤٥؛ فوشيه الشارتري، ص١١٨.

(٨) وليم الصوري، ج١، ص٢٦٣ – ٢٦٤.

(٩) وليم الصوري، ج٢، ص ٣٨.

(١٠) وليم الصوري، ج٢، ص ١٤٨ – ١٤٩؛ See also

Ralph - Johonnes Lilie: **Byzatium and The Crusader States, (1096 - 1204)** trnanslated to English by J. C. Morris and Jean E. Rindings Clarendon Press, Oxford, 1993, p.49 - 50.

(١١) وليم الصوري، ج٢، ص١٦٨؛ علية الجنزوري: **إمارة الرُّها الصليبية**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، رقم العدد ٢١١، ٢٠٠١م، ص٥١ – ٥٣.

(١٢) وليم الصوري، ج٢، ص١٩٦ – ٢٠٢، ٢٠٩.

(١٣) علية الجنزوري، ص٤٦ – ٤٩.

(١٤) علية الجنزوري، ص٢٤٦.

(١٥) وليم الصوري، ج٢، ص٣٤١ – ٣٤٢؛ كمال الدين أبو القاسم عمر بن العديم: **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، الجزء الثاني، تحقيق سامي دهان، دمشق، طبعة المعهد الفرنسي، ١٩٥٤م، ص١٤٥. يذكر وليم الصوري أن "جوفيتا" عاشت حياة الرهبانية، ولم تشغل نفسها بالسياسة.

(١٦) محمد سهيل طقوش: **تاريخ سلاجة الروم في آسيا الصغرى**، الطبعة الأولى، بيروت، دار النفائس، سنة ٢٠٠٢، ص٩٦ – ١٠٠.

(١٧) وليم الصوري، ج٢، ص١٠١.

(١٨) وليم الصوري، ج٢، ص٢٢٩ – ٢٣٩.

(١٩) وليم الصوري، ج٢، ص٢٤٠ – ٢٤١؛ فوشيه الشارتري، ص٢١٥.

(٢٠) انظر أيضاً ابن العديم، ج٢، ص١٤٨؛ وليم الصوري، ج٢، ص٢٤٧ – ٢٥٢ علية الجنزوري، ص١٠١ – ١١١؛ ويؤكد وليم الصوري فرار بوهيموند وتانكريد فيقول: "ولم يحدث أبداً أن قرأنا قبل ذلك الحادث أو بعده عن معركة بلغت من الشؤم ما بلغته تلك المعركة التي أسفرت عن مصرع رجال أبطال كهؤلاء الرجال ولا سمعنا عن مثل ذلك الفرار المشين الذي لحق بجيشنا".

(٢١) وليم الصوري، ج٢، ص٢٥٣.

Anna Comnena, **The Alexiade**, Translated to English by E.R.A.Sewter, second edition, Penguin Classic, England, 1979, p.p. 395 - 434.

(٢٢) حمزة بن أسد الدين بن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، تحقيق أمدروز، ليدن، ١٩٠٨م، ص١٦٤؛ وليم الصوري، ج٢، ص٢٥٧ – ٢٥٨، ص٢٦٠ – ٢٧١.

(٢٣) ابن القلانسي، ص١٦٣؛ وليم الصوري، ج٢، ص٢٥٩ – ٢٦١، ص٢٧٥ – ٢٨٠؛ عز الدين ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج١٠، تحقيق مجموعة من المؤرخين، الطبعة السادسة، بيروت، دار صادر، ١٩٩٥م، ص٤٧٥ – ٤٧٦. يسمى ابن الأثير "وليم جوردان" بالسرداني، كما يسمى "برتراند" "بريمند"، كما يرى ابن الأثير أن بلدوين البويوني لم يكن حليفاً لبرتراند بل جاء للصلح بينهما أي برتراند ووليم جوردان.

(٢٤) ابن الأثير، ج١٠، ص٤٦٤ – ٤٦٦؛ وليم الصوري، ج٢، ص٢٧٢ – ٢٧٥؛ انظر كذلك

علية الجنزوري، ص٢٠٧؛ ميشيل بالار: **الحملات الصليبية والشرق اللاتيني** – ترجمة: بشير السباعي، ط١، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٣م، ص١٠١؛ ابن العديم، ج٢، ص١٤٩ وص١٥٣.

(٢٥) وليم الصوري، ج٢، ص٢٨٠ – ٢٨٣.

(٢٦) ابن العديم، ج٢، ص١٥١.

(٢٧) انظر أيضاً علية الجنزوري، ص٢٠٩؛ ابن العديم، ج٢، ص١٥١، ص١٥٣ – ١٥٥؛ ابن القلانسي، ص١٦٩ – ١٧١. ويذكر ابن القلانسي أن قوات مودود كان عددها كبيراً فيقول: "واجتمع المسلمون في عدد لا يقوم بلقائه جميع الإفرنج"، كما يؤكد ابن القلانسي على أهمية تلك الحملة السلطانية على توحيد صف الصليبيين فيقول: "شرعوا في الجمع والاحتشاد والتأهب للذب عنها – أي الرُّها – والاستعداد، واتفقت كلمتهم بينهم على تلك الحال".

(٢٨) وليم الصوري، ج٢، ص٢٩٩؛ فوشيه الشارتري، ص٢٤٦؛ انظر كذلك عمر تدمري: **تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور**، الجزء الأول، عصر الصراع العربي البيزنطي والحروب الصليبية، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤م، ص٤٦٨ – ٤٧٠.

(٢٩) وليم الصوري، ج٢، ص٢٩٩، ص٣٤٨ – ٣٥٢؛ ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، تحقيق مجموعة من المؤرخين، ط٦، بيروت، دار صادر، ١٩٩٥م، ج١٠، ص٤٩٣.

(٣٠) وليم الصوري، ج٢، ص٣٠٣ – ٣٠٥، ص٣٢٦ – ٣٢٧؛ فوشيه الشارتري، ص٢٦٠؛ انظر كذلك علية الجنزوري، ص٧٥ – ٧٦؛ محمد سهيل طقوش، ص٦١.

(٣١) ابن الأثير: ج١٠، ص ٤٩٥ – ٤٩٦؛ ابن القلانسي، ص١٨٤ – ١٨٥؛ انظر كذلك علية الجنزوري، ص٢١٠ – ٢١١.

(٣٢) وليم الصوري، ج٢، ص٣٣٧ – ٣٣٩؛ فوشيه الشارتري، ص٢٦٩.

(٣٣) وليم الصوري، ج٢، ص٣٤٨ – ٣٦٠؛ ابن القلانسي، ص٢٠٠ – ٢٠١؛ ابن العديم، ج٢، ص١٨٧ – ١٩١.

(٣٤) ابن القلانسي، ص١٨٤؛ وليم الصوري، ج٢، ص٣٥٤ – ٣٥٧، ج٣، ص٥٨ – ٥٩.

See also Anonymous Syric Chronicle, tr. To English A.S. Tritton as "The First and Second Crusades from an Anonymous Syric Chronicle" with

notes by H.A.R. Gibb, **Journal of the Royal Asiatic Society,** London, Januray, 1933, p.85.

(٣٥) ابن العديم، ج٢، ص٢٠٣ – ٢٠٤.

(٣٦) ابن القلانسي، ص٢٠٩؛ ابن العديم، ج٢، ص٢٠٣، ٢٠٦، ص٢١٠ – ٢١١؛ وليم الصوري، ج٢، ص٣٦٣ – ٣٦٤.

(٣٧) وليم الصوري، ج٢، ص٣٧٠ – ٣٧٤، ج٣، ص٣٧ – ٤٣.

(٣٨) ابن العديم، ج٢، ص٢١٩ – ٢٣٠.

(٣٩) ابن القلانسي، ص٢١١ – ٢١٢؛ ابن العديم، ج٢، ص٢٢١ – ٢٢٢، ص٢٢٤؛ وليم الصوري، ج٣، ص٤٣ – ٤٩. ذكر وليم الصوري أن قوات بلدوين الثاني انتصرت على قوات آق سنقر قرب بلدة "أعزاز"، بينما يؤكد ابن القلانسي أن قوات بلدوين الثاني فرت إلى أنطاكية عندما قدمت قوات آق سنقر لاستلام حلب.

(٤٠) ابن القلانسي، ص٢١٦ – ٢١٧، ص٢٢٧ – ٢٢٨، ص٢٤٣.

(٤١) وليم الصوري، ج٣، ص٦٥ – ٦٦؛ ابن القلانسي، ص٢٣٣.

(٤٢) وليم الصوري، ج٣، ص٧٣ – ٧٥.

(٤٣) وليم الصوري، ج٣، ص٧٣ – ٧٥؛ لم تذكر المصادر الإسلامية خبر رسالة "أليس" لزنكي لطلب التحالف معه ضد أبيها ويبدو أنها صحيحة نظراً لمدى القسوة التي عامل بها بلدوين الثاني المتمردين عليه.

(٤٤) وليم الصوري، ج٣، ص٧٥ – ٧٦؛ انظر كذلك علية الجنزوري، ص٢٣٢ – ٢٣٥.

(٤٥) وليم الصوري، ج٣، ص٧٦ – ٧٧، يصف ابن القلانسي الملك بلدوين البورجي بأنه "شيخ عركه الزمان، وأنه عانى كثيراً، وسقط عدة مرات أسيراً بيد المسلمين ولكنه نجا بحيله المشهورة"، ويصف من خلفه وهو "فولك" بأنه "لم يتسدد في رأيه ولا أصاب في تدبيره"، ولذلك يصف حالة الصليبيين بعد بلدوين فيقول: "فاضطربوا لفقده واختلفوا من بعده" وهو ما يوضحه ذلك البحث من تحالف الإمارات الصليبية ضد مملكة بيت المقدس وزعامة الملك الجديد "فولك". ابن القلانسي، ص٢٣٣.

(٤٦) وليم الصوري، ج٣، ص٨٩.

(٤٧) المصدر السابق، ج٣،. ص٩٣.

(٤٨) المصدر السابق، ج٣، ص٩٦ – ٩٧.

(٤٩) وليم الصوري، ج٣، ص٩٦؛ و يؤكد ابن القلانسي على أهمية كون "فولك" ملكاً قادماً حديثاً من الغرب مما يُسهل عملية العصيان عليه والتحالف ضده حيث يقول "وقام فيهم بعده – أي بعد بلدوين الثاني – الملك القومص الجديد الكند ايجور "الكونت فولك" – الواصل إليهم في البحر من بلادهم – فلم يستدد رأيه ولاأصاب في تدبيره فاضطربوا لفقده واختلفوا من بعده" ابن القلانسي، ص٢٣٣.

(٥٠) وليم الصوري، ج٢، ص٩٧ – ٩٨؛ ابن العديم، ج٢، ص٢٥١؛ ويذكر ابن القلانسي باقتضاب الخلاف العسكري والفتنة التي وقعت بين الصليبيين. فيقول: "وفي المحرم – من سنة ٥٢٧هـ أي حوالي بداية سنة ١١٣٢م – وردت الأخبار من ناحية الإفرنج بوقوع الخلاف بينهم من غير عادة جارية لهم بذلك، ونشبت المحاربة بينهم، وقُتل منهم جماعة". كما يذكر ابن القلانسي أن أمير دمشق الجديد شمس الملوك إسماعيل ابن تاج الملوك بوري تمكن في تلك الأثناء من انتزاع بانياس بسهولة في شهر صفر من العام نفسه، ويبدو أن شمس الملوك استغل انشغال الملك فولك في إخضاع الثائرين عليه فانتزع بانياس من صليبيي مملكة بيت المقدس. ابن القلانسي، ص٢٣٦ – ٢٣٧

(٥١) وليم الصوري، ج٣، ص٩٧ – ٩٩.

(٥٢) وليم الصوري، ج٣، ص٩٩ – ١٠٠؛ أو يذكر ابن القلانسي أن القوات التي حاصرت كونت طرابلس "بونز" هي قوات تركمانية، ولكنه لم يوضح فيما إذا كانت تابعة لزنكي صاحب الموصل وحلب، كما يؤكد على أن قوات "بونز" استصرخت بالملك فولك. ابن القلانسي، ص٢٤٠.

(٥٣) وليم الصوري، ج٣، ص١٠٠ – ١٠٣.

(٥٤) وليم الصوري، ج٣، ص١١٧ – ١٢١.

(٥٥) المصدر السابق نفسه، ج٣، ص١٢١ – ١٢٤.

(٥٦) المصدر السابق نفسه، ج٣، ص١٢٤ – ١٢٥.

(٥٧) المصدر السابق، ج٣، ص١٠٣ – ١٠٥.

(٥٨) المصدر السابق، ج٣، ص١٢٦ – ١٢٩.

(٥٩) ابن القلانسي، ص٢٥٥ – ٢٥٦.

(٦٠) وليم الصوري، ج٣، ص١٣٣ – ١٣٤؛ ابن القلانسي، ص٢٥٨.

(٦١) ابن القلانسي، ص٢٥٨ – ٢٥٩؛ ابن العديم، ج٢، ص٢٦١ – ٢٦٢.

(٦٢) وليم الصوري، ج٣، ص١٣٤ – ١٣٦.

(٦٣) وليم الصوري، ج٣، ص١٣٤ – ١٣٦، ص١٤٦ – ١٤٨، ص٢٠١ – ٢٠٣؛ ابن القلانسي، ص٢٦٣ – ٢٦٦؛ ابن العديم، ج٢، ص٢٦٤ – ٢٦٨.

(٦٤) وليم الصوري، ج٣، ص٢٠٣ – ٢٠٩.

(٦٥) المصدر السابق، ج٣، ص٢١٤ – ٢١٥.

(٦٦) المصدر السابق، ج٣، ص٢٣٠ – ٢٣٤.

(٦٧) المصدر السابق، ج٣، ص٢٣٠ – ٢٣٤.

(٦٨) ابن القلانسي، ص٢٨٨ – ٢٨٩؛ ابن العديم، ج٢، ص٢٨٥، ص٢٩٠.

(٦٩) وليم الصوري، ج٣، ص٢٤٣ – ٢٥٨؛ ابن القلانسي، ص٢٨٨ – ٢٩٠؛ ابن العديم، ج٢، ص٢٧٨ – ٢٨١.

(٧٠) وليم الصوري، ج٣، ص٢٧٩ – ٣٢٠؛ ابن القلانسي، ص٢٩٧ – ٣٠٠؛ ابن العديم، ج٢، ص٢٩١ – ٢٩٢؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٦٣.

(٧١) ابن القلانسي، ص٣٠٤ – ٣٠٥.

(٧٢) وليم الصوري، ج٣، ص٣٢٢ – ٣٢٨؛ ابن العبري، غريغوريوس الملطي: **تاريخ مختصر الدول**، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨، ص١٦٤؛ الحافظ الذهبي: **العبر في أخبار من غبر**. تحقيق صلاح الدين المنجد، المجلد الرابع، الكويت، وزارة الإرشاد والأنباء، ١٩٦٣م، ص١٢١.

(٧٣) وليم الصوري، ج٣، ص٣٢٨.

(٧٤) المصدر السابق، ج٣، ص٣٣١ – ٣٣٢.

(٧٥) المصدر السابق، ج٣، ص٣٣٢ – ٣٣٤.

(٧٦) المصدر السابق، ج٣، ص٣٣٤ – ٣٣٦.

(٧٧) وليم الصوري، ج٣، ص٣٢٦ – ٣٤٣؛ ابن العديم، ج٢، ص٣٠٢ – ٣٠٣.

(٧٨) وليم الصوري، ج٣، ص٣٤٣ – ٣٤٤.

(٧٩) المصدر السابق، ج٣، ص٣٤٥ – ٣٤٦.

(٨٠) المصدر السابق، ج٣، ص٣٤٧ – ٣٧٢.

(٨١) ابن القلانسي، ص٣٠٦؛ ابن الأثير، ج١١، ص١٨٨ – ١٨٩، ص١٩٧ – ١٩٨؛ ابن العديم، ج٢، ص٣٠٣ – ٣٠٥؛ ابن القلانسي، ص٣٢١ – ٣٢٢، ص٣٢٧ – ٣٢٩.

انفرد مجيرالدين أبَق في حكم دمشق منذ وفاة أتابكه معين الدين أنر في أغسطس ١١٤٩م.

(٨٢) وليم الصوري، ج٣، ص٤٠١ – ٤٠٤.

(٨٣) ابن القلانسي، ص٣٣٤ – ٣٣٦؛ ابن العديم، ج٢، ص٣٠٦.

(٨٤) وليم الصوري، ج٣، ص٤١٥ – ٤١٦؛ ابن القلانسي، ص٣٣٨ – ٣٤١. يذكر ابن القلانسي أن قوات بلدوين الثالث كانت تقدر بسبعمائة فارس من الاسبتارية والسرجندية والداوية، ولكن ابن القلانسي لم يشر إلى أن قوات بيت المقدس كانت بقيادة بلدوين الثالث.

(٨٥) وليم الصوري، ج٣، ص٤١٥ – ٤١٦، ص٤٢٦ – ٤٢٨.

(٨٦) المصدر السابق، ج٣، ص٤١٥ – ٤١٦، ص٤٢٦ – ٤٢٨.

(٨٧) المصدر السابق، ج٣، ص٤٣٨ و ص٤٤٨.

(٨٨) المصدر السابق، ج٣، ص٤٢٨ – ٤٣١.

(٨٩) المصدر السابق، ج٣، ص٤٢٨ – ٤٣٥.

(٩٠) وليم الصوري، ج٣، ص٤٣٩ – ٤٤٣؛ ابن القلانسي، ص٣٥٧؛ ابن العديم،ج٢، ص٣١١. يخطئ ابن العديم فيذكر أن الذي أسره ابن الداية هو جوسلين الثاني – كونت الرُّها – والذي سبق أن أسر في سنة ١١٤٩م.

(٩١) وليم الصوري، ج٣، ص٤٤٤ – ٤٤٥.

(٩٢) المصدر السابق، ج٣، ص٤٤٦ – ٤٤٧.

(٩٣) المصدر السابق، ج٣، ص٤٤٦ – ٤٤٨.

(٩٤) المصدر السابق، ج٣، ص٤٥٠ – ٤٥١.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً – المصادر العربية:

- ابن الأثير، عزالدين أبو الحسن علي بن محمد: ت (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) **الكامل في التاريخ**، تحقيق مجموعة من المؤرخين، دار صادر، الطبعة السادسة، بيروت، ١٩٩٥م. **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية "ملوك الموصل"**، تحقيق عبدالقادر أحمد طليمات، القاهرة، ١٩٦٣م. دار الكتب الحديثة.

- ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف: ت (٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م) **النجوم الزاهرة في ذكر ملوك مصر والقاهرة**، المجلد الخامس، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٨٤م.

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي: ت (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٣٩م.

- ابن شداد، عزالدين محمد بن علي: ت (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، المجلد الأول، تحقيق سامي دهان، وزارة الثقافة بسوريا، دمشق، ١٩٦٣م.

- ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس جمال الدين الملطي: ت (٦٨٣هـ/ ١٢٨٦) **تاريخ مختصر الدول**، تحقيق أنطون اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨م.

- ابن العديم؛ كمال الدين أبي القاسم عمر بن هبة الله: ت (٦٦٠هـ/١٢٦٢م)
  ❋ **بغية الطلب في تاريخ حلب**، تحقيق سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٨م، دار الفكر.
  ❋ **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، جزآن، تحقيق سامي دهان، طبعة المعهد الفرنسي بدمشق، الجزء الأول ١٩٤٥م، والجزء الثاني ١٩٥١م.

- ابن العمراني، محمد بن علي: ت (٥٨٥هـ/ ١١٨٥م) **الإنباء في تاريخ الخلفاء**، تأليف محمد بن علي محمد المعروف بابن العمراني، تحقيق قاسم السمرائي، الطبعة الثانية، الرياض، ١٩٨٢م، دار العلوم.

- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة: ت (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) **ذيل تاريخ دمشق**، تحقيق أمدروز، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٠٨م.
- ابن كثير، أبو الفدا الحافظ إسماعيل بن عمر الدمشقي: ت (٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) **البداية والنهاية**، الجزء الثاني عشر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٦٦م، مكتبة المعارف.
- البنداري، أبو الفتح بن علي: ت (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) **تاريخ دولة آل سلجوق**، وهو اختصار لكتاب **نصرة الفترة وعصر الفطرة في أخبار الوزراء السلجوقية** لعماد الدين محمد، لمحمد بن محمد بن حامد الأصفهاني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م.
- الحُسيني، صدر الدين أبو الحسن علي: ت (٦٢٢هـ/ ١٢٢٤م) **أخبار الدولة السلجوقية**، تحقيق محمد إقبال، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤م.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالملك عبدالله: ت (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) **معجم البلدان**، خمسة أجزاء، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥م.
- الذهبي، الحافظ: **العبر في أخبار من غبر**، تحقيق صلاح الدين المنجد، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٣م.
- المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، الجزء الأول، دار الفكر، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٧٣م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: ت (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) **اتعاظ الحُنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلفا**، الجزء الأول تحقيق جمال الدين الشيال الجزآن الثاني والثالث، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ثلاثة أجزاء، القاهرة، ١٩٧١م و١٩٧٣م. الجزء الأول طبعة دار الفكر العربي سنة ١٩٤٨م، الجزآن الثاني والثالث طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

ثانياً – المصادر غير العربية:

- Albert of Aix, **‘Historia Hierosolymitana’** R.H.C. Oc., Iv, Paris, 1819.

وقام قاسم عبده قاسم بترجمة أجزاء منه تحت عنوان "**الحروب الصليبية – نصوص ووثائق**"، القاهرة، ١٩٨٤م. وقد استعنت بتلك الترجمة.

- Anna Comnena: **The Alexiade,** translated by E.R.A. Sewter, Penguin Classics, London, 1979.
- Anonymous Syriac Chronicle, tr. A.S. Tritton as "The First and Second Crusades from an Anonymous Syriac Chronicle", with notes by H.A.R. Gibb, **Journal of the Royal Asiatic Society**, London, January, 1933.
- Fulcher of Chartres, **Historia Hierosolymitana,** ed. G. Hagenmeyer (Heidelbery, 1931) English Translation by F.R. Ryan, ed with an introduction by H.S. Fink, **A history of the Expedition to Jerusalem,** Knoxville, (1969).

ترجم الكتاب من اللغة الإنجليزية إلى العربية قاسم عبده قاسم تحت عنوان **الوجود الصليبي في الشرق العربي**، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ١٩٩٣م. وقد استعنت بتلك الترجمة.

- Gesta Francorum, **The Deeds of the Franks,** ed,. and trans, by R.Hill, London , 1945.

قام بترجمة الكتاب من النص الإنجليزي إلى اللغة العربية حسن حبشي.

- Reymon de Tolouse: **Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem,** R.H.C. Oc, III.

ويعني باللغة العربية "**تاريخ الفرنجة الذين استولوا على بيت المقدس**". وقد استعنت بتلك الترجمة. وقام قاسم عبده قاسم بترجمة أجزاء منه تحت عنوان "**الحروب الصليبية - نصوص ووثائق**"، كما قام حسين محمد عطية بترجمته كاملاً تحت عنوان "**تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس**"، ط١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م. وقد استعنت بتلك الترجمة

- William, Archbishop of Tyre, **A History of Deeds Done Beyond the Sea,** Translated to English by Emily Babcock A. C. Krey, 2 vols, New York, 1976.

وعنوان الكتاب الأصلي باللغة اللاّتينية هو: Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, R.H.C Oc.1. وترجم الكتاب من الأصل الإنجليزي حسن حبشي تحت عنوان: "**الحروب الصليبية (١٠٩٤ - ١١٨٤م)**"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ضمن سلسلة تاريخ المصريين، وهو في أربعة مجلدات، صدر الجزء الأول سنة ١٩٩١م يحمل رقم (٤٥)، والثاني يحمل رقم (٥٥) في سنة ١٩٩٢م، والثالث يحمل

رقم (٦٨) في سنة ١٩٩٤م، والجزء الأخير يحمل رقم (٧٧) في سنة ١٩٩٥م. وقد استعنت بتلك الترجمة.

ثالثاً – المراجع العربية:

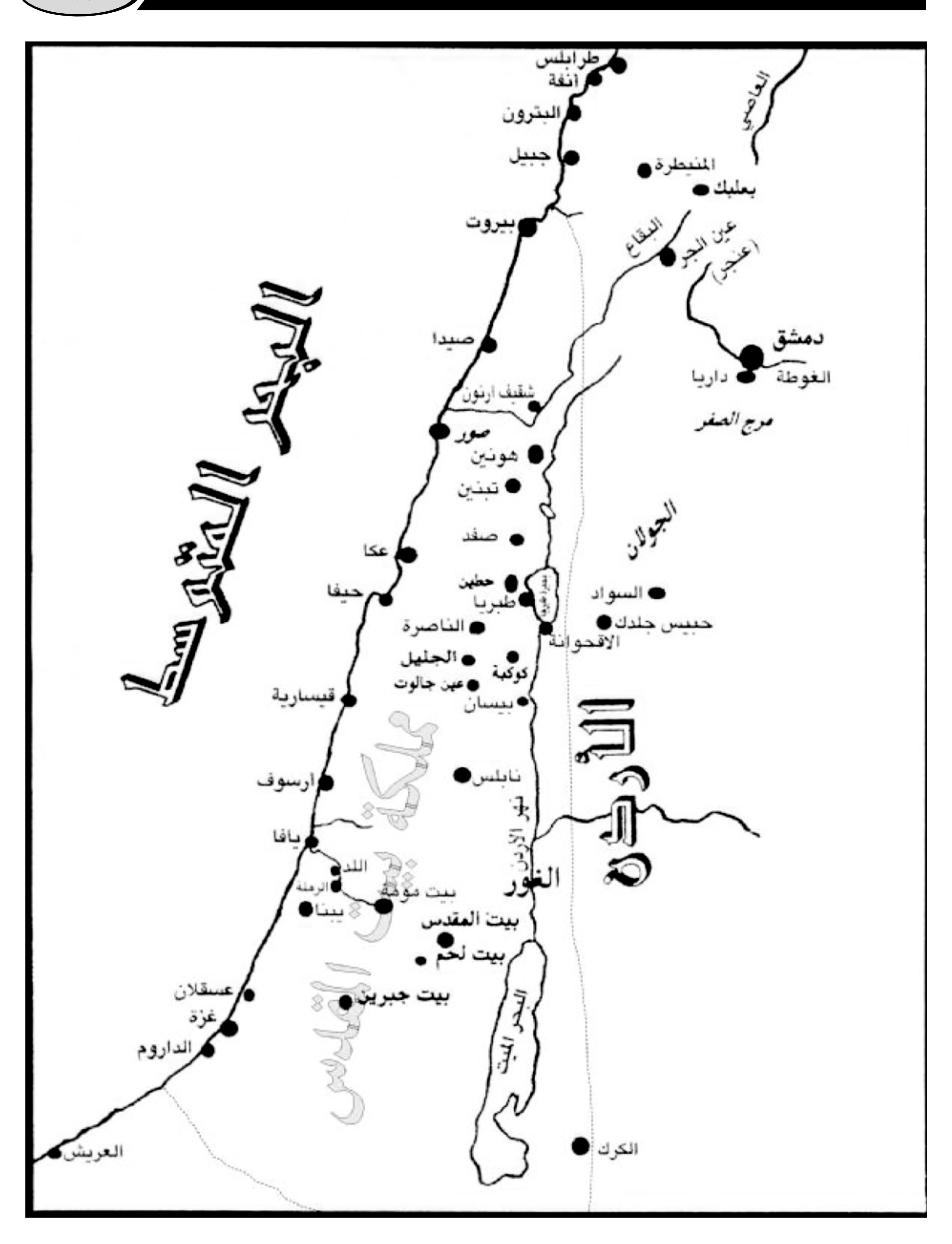
- إدريس، محمد: **تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول**، القاهرة، ١٩٨٥م، مكتبة نهضة الشرق.
- إسماعيل، أحمد علي: **تاريخ السلاجقة في بلاد الشام في القرنين الخامس والسادس الهجري**، دمشق، ١٩٨٤م.
- الجنزوري، علية: **إمارة الرُّها الصليبية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، رقم ٢١١، القاهرة، ٢٠٠١م
- حسين، عبدالمنعم: **إيران والعراق في العصر السلجوقي**، بيروت، ١٩٨٢م، دار الكتاب اللبناني،.
- الحمد، عامرة: **الإمبراطورية البيزنطية والأمراء الصليبيون**، القاهرة، ١٩٨٠م، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي.
- خليل، عمادالدين: **المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، عصر ولاة السلاجقة في الموصل (٤٨٩ – ٥٢١هـ/ ١٠٩٥ – ١١٢٧م)** ، الرياض، ١٩٨٠م.
- زكار، سهيل: **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية**، دمشق، ١٩٨١م، الطبعة الرابعة، دار الفكر.
- عثمان، فتحي: **الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري**، ثلاثة أجزاء، القاهرة، ١٩٦٦م، الدار القومية للطباعة والنشر.
- قاسم، عبده قاسم: **الخلفية الأيدلوجية للحروب الصليبية**، دراسة عن الحملة الأولى (١٠٩٥ – ١٠٩٩م) الطبعة الثانية، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٨م.
- مصطفى، شاكر: **دخول الترك الغُزْ بلاد الشام**، المؤتمر الدولي لتاريخ سوريا، من القرن الرابع إلى القرن السادس الهجري، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٤م.
- مقبل، فهمي: **الفاطميون والصليبيون**، بيروت، ١٩٧٩م.

رابعاً – المراجع الأجنبية والمعربة:

- Ashtor, E. A: **Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages.** London, 1976.
- Atiya, A.S.: **The Crusades, Commerce and Culture,** Bloomington, 1962.
- Bashir, B. J. : "Fatimid Military Organization" **Der Islam,** vol. 55, Berlin, 1978, p 37 - 56..
- France, John: **Victory in the East,** Cambridge University Press, First Edition, 1994.
- Hitt, P.H.: **A history of Syria,** London , 1951.
- Riley - Smith, J.S.C.: **The First Crusade and the Idea of Crusading,** London, 1986.
- Runciman, S.: **A history of the Crusades,** Vol. I, Cambridge, 1952.

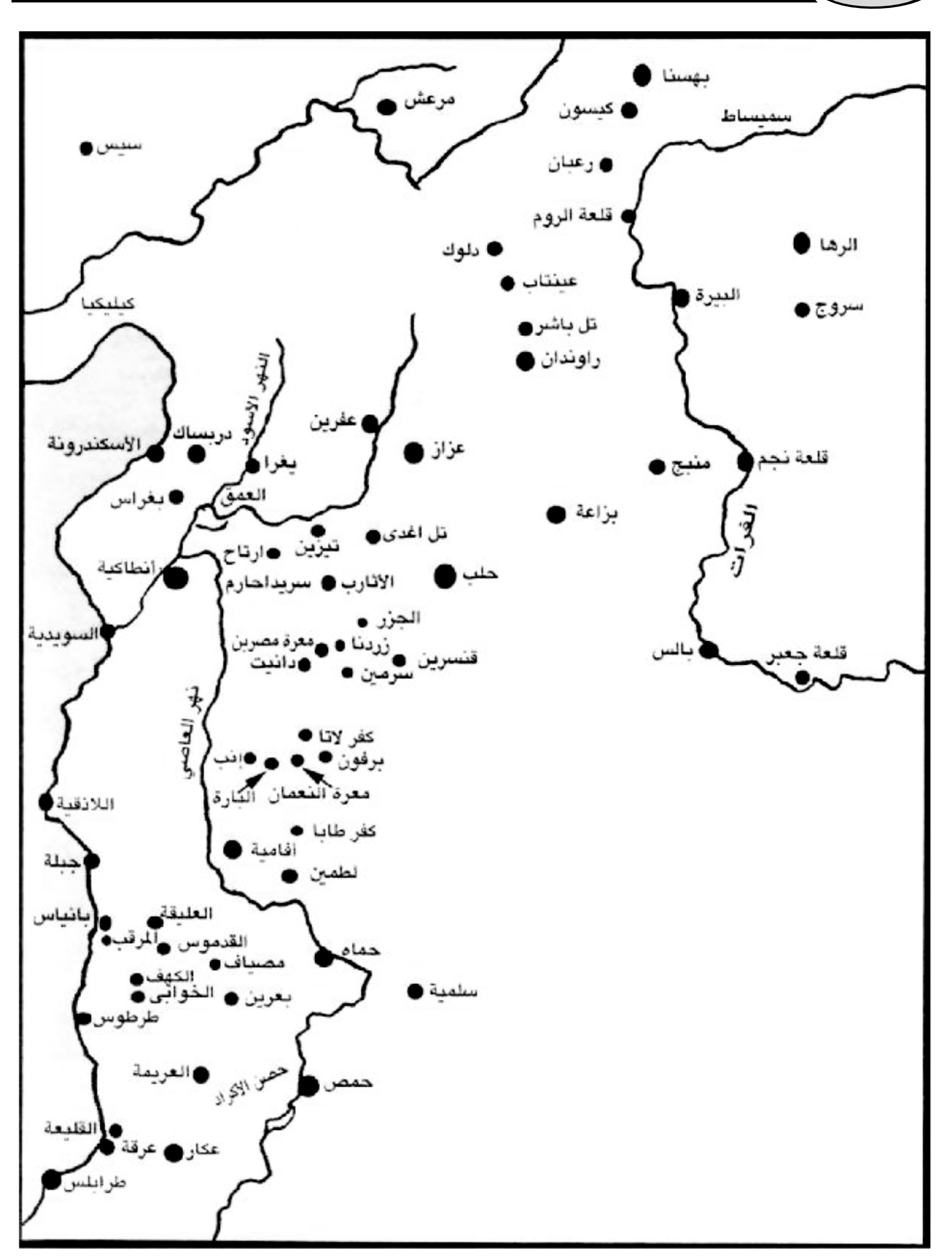
وقد ترجمه إلى اللغة العربية السيد الباز العريني تحت عنوان **تاريخ الحروب الصليبية**، دار الثقافة، الطبعة الثامنة، بيروت، ١٩٨١م.

- Setton, K.M. and Baldwin, M.W. (ed.), **A history of the Crusades,** Vol. I.
- The First Hundred Years. (Madison, Milwaukee and London, 1969).
- Smail, R.C.: **Crusading Warfar - 1097 - 1193).** Cambridge, 1907.
- Yewdale, Ralph: **Bohemond I, Prince of Antioch,** Ph.D., Princeton University, 1917.
- Yusuf, Muhsin Dhib: The Economic History of Syria During 4th - 5th Centuries After Hijra/10 - 11. A.D. " Ph.D. Thesis, Princeton University, 1982.



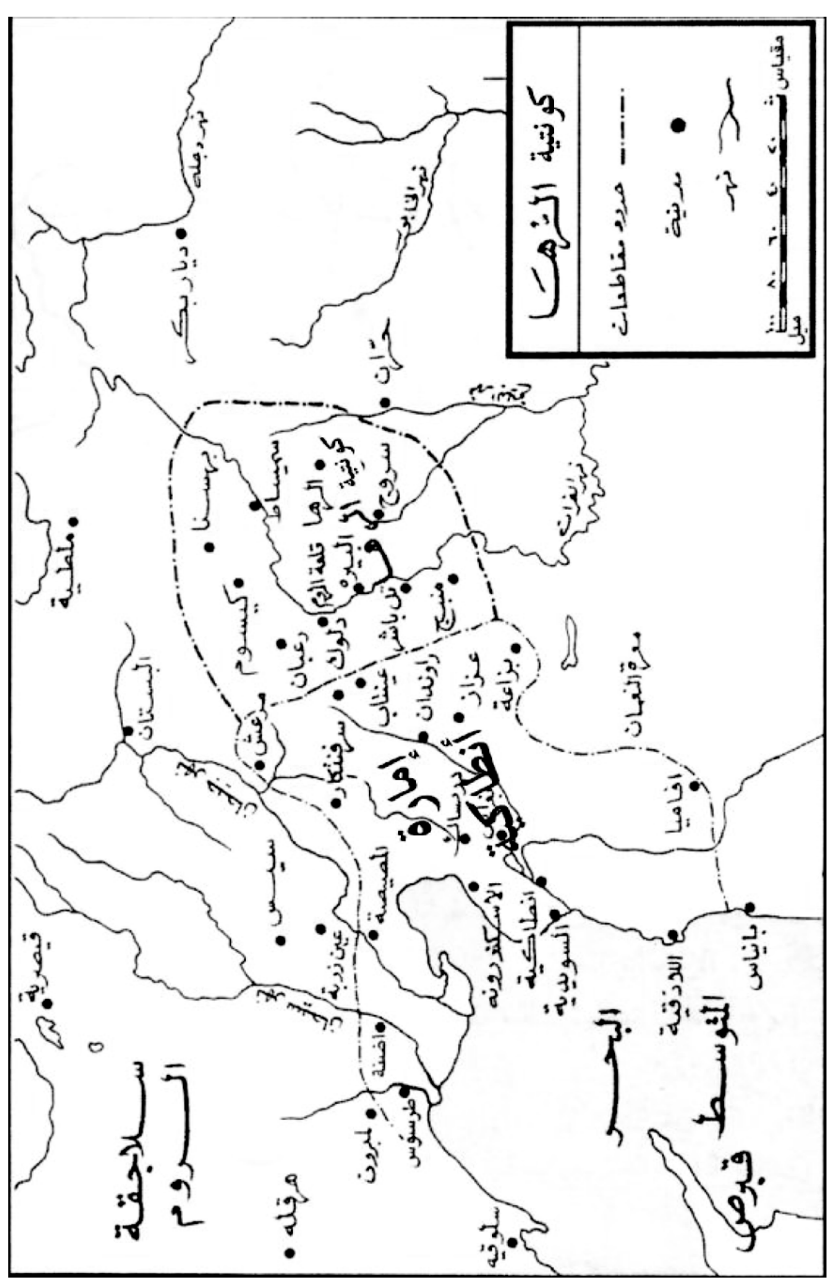
القسم الجنوبي من بلاد الشام

نقلا عن محمد سهيل طقوش: **تاريخ السلاجقة في بلاد الشام**، ط١، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٢م.



القسم الشمالي من بلاد الشام

نقلا عن محمد سهيل طقوش: **تاريخ السلاجقة في بلاد الشام**، ط١، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٢م.



نقلا عن محمد سهيل طقوش: **تاريخ السلاجقة في بلاد الشام**، ط١، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٢م.

Crusader Women's Aspiration for Authority and Power Conflict in Early Crusades Period

Abstract

This study deals with an odd phenomenon; namely, the domination of women on the crusaders dominions of the East from (524 till 556 A.H/1130 till 1161). This phenomenon can not be studied without relating it to the conflict of powers such as Muslims, Crusaders, Byzantines, and Armenians during that arena. One of the strange aspects of this phenomenon that three sisters will take over powers in main crusades states during that time. Those sisters were daughters of King Baldwin II of Jerusalem (512 - 525 A.H/1118 - 1131) and their mother was Morphia the Armenian daughter of Gabriel of Malatia. Milezand, the elder sister, will control the power in the Kingdom of Jerusalem from (525 till 546 A.H/1131 till 1151). Alice, longed to take over the power in Antioch after the murder of her husband Bohemond II in (524 A.H/1130), but she was suppressed by her father King Baldwin II. On the next year, she exploited the death of her father to take control in Antioch and to lead an alliance with Pons - Count of Tripoli - against Fulk, her brother - in - law; the new King of Jerusalem. Again she revolted against King Fulk, but her daughter Constance, the legitimate ruler of Antioch, took over power for four years after the murder of her husband Raymond of Poitiers in (544 A.H/1149). The third sister" Hodierna'' ruled Tripoli after the murder of her husband Raymond II in (547 A.H/1152), and she became a regent of her son Raymond III till he got old enough. It seems to me that it is the first time someone discuss this subject and relate it with the power conflict during that era. While the crusaders of the East were involved in interior discord and most of their dominions would be controlled by women, Muslims of Syria and Mesopotamia united by Zangi of Mosul and Aleppo (520 - 541 A.H/1126 - 1146) then by his son Nureddin (541 - 569 A.H/1146 - 1174), who annexed Egypt. The balance of power moved to Muslims and the crusaders paid an expensive price later on in the decisive battle of Hiteen when they were defeated by Saladin.

The Author :

Dr. Jamal M. H. AL - Zanki

- Ph.D in Islamic and Medieval History from University of St. Andrews, Scotland, 1989.
- Lecturer in Islamic and Medieval History in Kuwait University from 1989.

Publications

- Yaghi - Siyan of Antioch and the First Crusade, 1085 - 1098, Annals of the Faculty of Arts, Vol. XVII, 1998, one hundred twenty six Monograph, issued by Academic Publication Council, Kuwait University.
- The Objectivity of the Historian William of Tyre in the Justice of the Historical Criticism. Arab Journal for the Humanities, Vol. 85, 2004, issued by Academic Publication Council, Kuwait University.

MONOGRAPH 286

Crusader Women's Aspiration for Authority and Power conflict in Early Crusades Period

Dr. Jamal M. H. AL - Zanki
Department of History - Faculty of Arts
University of Kuwait